أكسجين سام

رواية

ديوان العرب للنشر والتوزيع

اســـــم الكتاب: أكسجين سام
اســـم المؤلف: مي حسام أبو صير
التصنيـــــــف: رواية
الحجـــــــم: 14 - 20
عدد الصفحات: 146
سنة الإصـــدار: 2025
رقـــم الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: 20943 / 2025
الترقيم الدولي: 978 - 977 – 971 – 234 – 5

تدقيـــق لغوي: مي حسام أبو صير
تصميم غـــلاف: محمد وجيه
تنسيق وإخراج: محمد وجيه

للتواصل: dewanalarabegypt@gmail.com
واتساب: 01030502390

أكسجين سام

رواية

مي حسام أبو صير

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

إهداء

إليكِ وحدكِ

وإن لم يكن لعشقكِ دافع

فقلبي مأخوذ

وما للعقل من شافع

مي حسام أبو صير

****

البوح الأول

وكنت نسيًا منسيًا

دَوَّت صرخة هزت أرجاء المنزل، أرى الجميع مرتبكًا، يهيمون على وجوههم هنا وهناك، سما باهتة الملامح واقفة قرب الباب، قبل أن تُبعِدها والدتها _فريدة زوجة عمي_ بتوتر، تصيح بها أن تخرج من الغرفة فلا يصح وجودها، التقطت الهاتف بسرعة، اتصلت بعمي شاكر، تخبره بولادة مبكرة.

اقتحم صلاح الغرفة، ينظر بهلع للجميع قائلًا: لابد من الذهاب إلى أقرب مشفى حتى لا تتعرض هي أو الجنين للخطر.

احتضنتني فريدة، تبكي بخوف... لا أعلم ما علاقتي بما يحدث؟! ولماذا أشعر بكل تلك المعاناة؟! وجع يتوغل بين أحشائي، صرخات تحاصرني بلا إثم، هناك من استعمر جسدي وألقى بداخله جمرات محترقة.

تخبرهم الجارة أن الذهاب لأي مشفى في ظل الوباء سيكون خطرًا أكبر وخاصة مع حظر التجوال، رفض صلاح الاستسلام لحديثها، اقترب مني وأنا أنظر إليه بدهشة، عينيّ تغمرهما دموع ألم لا أفهم سببه، أبحث في ملامحه عن إجابة لما أنا فيه، حملني بين ذراعيه دون تردد، حاولت إبعاده بخجل، لمَ يقترب وهو مجرد ابن عمي؟ لم أستطع مقاومته، فقد خذلتني أطرافي، أيعني ذلك أني من جاءها المخاض؟! كيف ولم أتزوج بعد ولم أكُ بغيًّا؟! يا الله، يا ليتني مت قبل هذا.

لا أدري كم من الوقت مَرّ، أو متى تركتني يد صلاح، كل ما أتذكره ذلك الألم، تائهة بين أنياب جحيم يعتصر أحشائي وسياط تمزق ظهري، وثائر يأبى هتك ميثاق الشرف وعليه القضاء على من آذاني.

أحقًا أذنبت؟ كيف... متى... أين؟!

رحماك يا الله، لا أقوى على العذاب، ولا أعلم من الغيب شيء عن رحمتهم بي أو سوء العقاب.

صرخت بكل قوتي، ثم صمتُّ، صمت لا أعرف إلى متى، لكني أيقنت أنني لن أُكلّم اليوم إنسيًا، حتى أستطع أن أنزع ثوب السوء عني.

حولي أصوات متداخلة، مزيج من صرير الأبواب والأسِرّة، زفرات سريعة وكأنها مني، وأنين أعرفه... أو لا أعرفه!

رائحة المكان تشبه الوجع الذي لا يُرى، دواء عالق في الهواء، برد لا علاقة له بدرجة الحرارة، يوخز النفس ويبرد الروح.

أغمضت عينيَّ مستسلمة لذلك السائل المتدفق في أوردتي، سلّمت أمري للذي فطرني، لعلي أجد الخلاص وأخرج من هذي البئر السحيقة، أتخيل أنني أجلس مع أختي ورد وسما، نتسامر كعادتنا على الأريكة في ليلة شتاء قارسة، نتدثر بغطاء من الفرو سرقناه من الغرفة دون علم فريدة، تحتضن يد كل منا كوب قرفة ساخن، نستمد منه الدفء ومن رائحته السكون.

- حمدًا لله على سلامتكِ، ياسمين.

قالها صلاح بحنان مبالغ، سمعته بمجرد أن فتحت عينيّ، وقد صدمهما ضوء ساطع تعمد اقتحام جفوني وتضليل أفكاري، الاسم يتردد في رأسي كغريب يطرق الباب بلا استئذان، تساءلت رغم الوهن: ماذا حدث؟!

لم يجب أحد، سما بجواري، ترفع خصلات شعري المبللة عن جبيني بيدٍ باردة، أشعر بألم غريب أسفل بطني، صلاح يقف أمامي بلا خجل، وكأنه استباح خصوصيتي حين حملني!

صوت بكاء رضيع يتناهى إليّ، أبحث عن مصدره؛ فأجده بين ذراعي فريدة، تهدهده وهي تبتسم بسعادة، هل يسعدهم الأمر؟! عمي يجلس آخر الغرفة على سجادة الصلاة، يرفع يديه شاكرًا لله فضله.

الممرضة تتأكد من أنبوب المحلول المتصل بالوريد، لتلقي إليّ بسمة قائلة: ولدٌ كالبدر، عليكِ أن تتعافي لتشبعي قلبكِ برؤيته.

فجأة، ارتعش داخلي كطفل فُطم للتو، غمرني شعور مرعب بالخوف من الجميع، لا أتذكر كيف يمكن أن يكون لي طفل، صحت بهلع، أحاول التحرك: أنا لم أتزوج! لم أحمل! ليس ابني!

بهتت الوجوه من حولي، هرعت الممرضة تنادي الطبيب، تطمئنهم: ربما صدمة ما بعد الولادة... لا تقلقوا.

.....

يجلسون فرحين بما آتاهم، فلقد وهبتهم الحياة بداية جديدة، التزمت الصمت لعلَّ عقلي يُدرك مع الوقت ما يحدث، أهذا حق أم أضغاث أحلام؟!

صوت بكاء الرضيع الخافت يصدح في المكان بين الحين والآخر، وكأنه آذان فجر جديد، كلما سمعته فريدة؛ لبت النداء وهي تحمل زجاجة الرضاعة الدافئة، تضع فوهتها اللينة في فمه؛ فيهدأ على الفور.

تتشعب الأحاديث بينهم إلى ذكريات عن عمي وزوجته يوم وِلادة صلاح، وكيف كانت أصعب من ميلاد سما لأنه "البِكر"، يتحدثون عن اختيارهم لاسمه، وكيف تمنّوا أن يكون له نصيب منه؛ فيصبح صلاحًا لحياتهم، ثم ينتقل الحديث سريعًا إلى الرضيع، الكل يحاول فرض رأيه واقتراح اسم مناسب، حتى أنهى صلاح النقاش واقترب مني موجهًا حديثه لهم قائلًا: اتفقت مع ياسمين منذ أن عرفنا أنه ولد أن نُسميه سيف، أليس كذلك، حبيبتي؟

لم أنطق، نظرت إليه بدهشة وعلى وجهي ابتسامة باهتة، كنت أحبس الكلمات في حلقي، أخشى أن يفضحني صوتي ويُفجر الفوضى داخلي، فقط أردد لنفسي "لن أكلم اليوم إنسيًا"

رغم كل ما يحدث، ظلّ عقلي معلقًا بذلك الفراغ بعقلي، أرى مشاهد من زفافي على صلاح تتوالى؛ فأُدرك سبب سعادتهم بالحفيد الأول، لكن كلما لامس عقلي لحظة من ذاكرته، ظهرت ورد، تقترب مني، تصفعني بقوة.

أصرخ، أُقاوم السوار المربوط حول معصمي يغذي وريدي، أنزع أنبوب الدواء منه، أُمسك رأسي بهلع، أصرّ على أنها ورد من فعلت بي ذلك وعجلت ولادتي، يتبادل الجميع النظرات بدهشة، يؤكدون أنه لا وجود لها بينهم، لكني أراها، تقترب من الطفل، تحاول خنقه، وهو يصرخ كلما اقتربت منه وكأنه يشعر بالخطر.

رأسي يثقل، جسدي يتخدر بعدما أسرعت الممرضة بإبرة المهدئ... وغبت عن عالمهم.

.....

بعد عدة أيام في منزل عمي، كان الجميع يتحرّك كخلية نحل، يُعدّون التجهيزات لاحتفال المملكة بقدوم الأمير، كنت أشعر بتجاهلهم لي؛ الكل منشغل بالحفيد، تهتم به فريدة، تواظب على إعطائه زجاجة الرضاعة وتغيير حفاضته وملابسه باستمرار، تلاعبه سما، ويأخذه عمي من حين لآخر، يرمقه بفخر، ثم يُعيده سريعًا إلى مهده خشية أن يؤذيه دون قصد.

أما صلاح، فكنت أحاول فهم نظراته إليّ... أشعر في عينيه بندم يخفيه.

كنت أقف خلف باب الغرفة عندما سمعته يتحدث معهم، يحذّرهم من الحديث أمامي عن أي شيء يخص الماضي، حتى لا تنتكس حالتي كما أخبره الطبيب، خاصة بعد ما مررت به أثناء الولادة، وأضاف أنه سيحاول مساعدتي دون الحاجة لإدخالي مصحة!

تحرّك أحدهم باتجاه الغرفة؛ فأسرعت بالجلوس على الفراش، كانت فريدة، تحمل الطفل وتقترب مني لأول مرة منذ ولادته، وكأنها تذكرت فجأة أني أمه، أو ربما رأت محاولاتي رؤية ملامحه دون أن يشعر بي أحد، جلست بجواري، وقالت بابتسامة: أراكِ اليوم في حالٍ أفضل بنيّتي... ما رأيك أن تُجرّبي إرضاعه؟

انتفض قلبي، شيء داخلي تحرّك نحوه للمرة الأولى، وهي تضعه بين ذراعيّ، ابتسمت دون إرادة، وأنا أتفرّس ملامحه الدقيقة عن قرب، أنفاسه الصغيرة أربكتني، أسعدتني!

قربته من صدري بفمه الصغير الذي عرف طريقه بالفطرة؛ فاخترقني شعور غريب... شيئًا بداخلي كان ناقصًا والآن قد اكتمل، غرقت معه في إحساسٍ لم أعهده من قبل، حب جديد لا ينتظر تبرير أو مقدمات!

استسلمتُ لخدر الأمومة، وقد بدأ جسدي يعلن بدء علاقة جديدة، أعمق من الحب، وأقوى من الغريزة؛ فلقد أصبحتُ وطنًا لطفل لا يعرف من الدنيا سوى رائحتي، صوتي، ملمس بشرتي، ونبع حنانٍ يرتشف منه.

البوح الثاني
بيني وبينها دمية

لا أدري إن كنتُ نائمة حين سمعت ذلك الصوت، لم يكن واضحًا، كأن أحدًا يهمس من القاع... صوت لا يُنادي؛ بل يُلقى داخلي كقطرة ماء في جوف بئر.

"ياسمين"

جلست ببطء، أرهف سمعي، هل ناداني أحد؟ هل هذا حلم؟ هل استيقظ سيف؟

تحركتُ نحو غرفته، ربما طلب الماء أو ضايقته حشرة تسللت من النافذة عطشة لترتشف حق ليس لها.

منذ عدت إلى منزلي وأنا أحرص على الاهتمام بطفلي، كنت أحتاج أن أشعر أنني أستحق أن أكون أمًا، أن أثبت للجميع أني جديرة بمسؤولية بيت وأسرة، يكفي ما قضيناه من أشهر طويلة في بيت العائلة حتى أتعافى كما يدعون.

دقات الساعة المعلقة على الحائط تقطع سكون الغرفة، وكأن بداخلها من ينتظر خلف الدقائق، يرفض أن يغادر دون أن أفتح له ليدخل من مكانٍ لا أعرفه، لا أتذكر كيف انتزعتُ طفلي من الغرفة التي أرى فيها خيالات تتحرك، أو منذ متى وأنا على هذه الهيئة، جالسة على الأرض القرفصاء،

أحتضن نفسي، سيف بجواري، يعبث بألعابه الصغيرة، يحركها فتصدر أصوات رنانة تؤنس وحدة المكان، يبتسم لي بين الحين والآخر... لكنه يبتسم لها أيضًا!

ورد التي رحلت منذ سنوات، تعود الآن ولا تبالي بي، أخشى اقترابها مني، رغم افتقادي احتضانها منذ رحلت، تجلس أمامي صامتة، عيناها ثابتتان، لا رمش فيهما ولا سؤال، تنظران إليّ كما لو كنتُ أنا الغريبة على هذا المكان، سيف يضحك، يمد يداه لها، أمامها دميتها القديمة، ما زالت كما هي بشعرها الطويل وفستانها الوردي، يشير لها أن تقترب لتلاعبه، كلما حاول الوصول إليها، جذبته إليّ، أمنعه من الاقتراب منها.

هواء غريب تسلل إلى أطرافي، أشعر بأن ندى الصباح يتساقط من حولي... كأن الغرفة تُمطر من داخلي، برد وعرق اجتمعا للاحتفال على جلدي، صقيع في عظامي ونار في رأسي.

فجأة... وجدت صلاح واقفًا أمامي، لا أعرف متى عاد إلى المنزل، مدّ يداه يمسك بذراعي، يعينني على النهوض، لكن قدماي لا تحملاني، مغروسة كجذور في أرض جافة، نظر إليّ بقلق وهمس: ياسمين... ماذا بك؟

أشرت بيدي المرتعشة نحو الزاوية، حيث كانت تجلس، التفت يتبع إصبعي، نظر... لم يرَ شيئًا، حرك رأسه باندهاش متسائل.

- كانت هنا! لساعات تجلس أمامي تنظر لي، لا تتحرك، لا تنطق.

قال بقلق، وهو يتحسس جبهتي برفق: ياسمين، أنتِ محمومة، حرارتك مرتفعة.

- ظلت تحدق بي ولم تنطق، وسيف... سيف كان يلاعبها، رآها مثلما رأيتها.

أغمض عينيه بأسى، كأنه لا يريد تكذيبي، لكنه لا يستطيع تصديقي.

- اهدئي، إنها الحمى، تعالي معي، دعيني أساعدك.

قادني نحو الحمّام، أرتجف، أقاوم خطواتي، أبكي ولا دموع تستجيب، صوت المياه يعلو، يختلط بارتجافي، سخونة تجتاحني فجأة، استسلم جسدي لاندفاع الماء، أحتمي بملابسي الغارقة وكدرع أخير، رغم أنها غارقة معي في الأوهام.

دثرني برداء الاستحمام الذي انتزعه من شماعته خلف الباب، رفعني بذراعيه يضمني إلى صدره، وضعت رأسي على كتفه... أخيرًا شعرت بهدوء يتسلل داخلي، ولم أعِ شيئًا بعدها.

حين أفقت، كان الظلام قد حلّ، وأمامي على الأريكة ينام صلاح وسيف بين ذراعيه، غارقان في سكينة لا تشبه سكوني، جذبت الطفل من بين يديه، وضعته على الفراش بهدوء، وعدت لألقي بنفسي بين ذراعيه علني أستطيع النوم مرة أخرى.

.....

في الصباح، استيقظت بإرهاقٍ شديد، وكأنني لم أرَ النوم منذ دهور، كنت في فراشي بجوار سيف، نُقلت دون أن أدري، الساعة قد اقتربت من الواحدة ظهرًا، صلاح ما زال في المنزل، وقد أعد لي الإفطار ووضعه على طاولة الغرفة، أشعر بالجوع حقًا؛ لا أتذكر متى كانت آخر مرة تناولت فيها طعامًا، أمسكت بكوب العصير، وقد قررت ألّا أفكر في شيء سوى تعويض زوجي وطفلي عن يومين مضيا وأنا في غيبوبة بين الوهم والهذيان، يجب أن أخرج نفسي من تلك الحالة من أجلهما، أنهيت عصيري وأنا أتأمل الشارع من خلف النافذة، هذه هي الحياة! كم من حكاية تختبئ وراء كل وجه عابس أو باسم؟ وكم من روحٍ فارقت وظنّ أحبّتها أن ابتسامة الفرح لن ترسم مرة أخرى على شفاه الحياة؟ الشارع حياة... وشوارع مصر تنبض بحكايات لا تنتهي، وقصص لا تتكرر، رغم أن كل الملامح متشابهة.

قررت أن أواجه الواقع منذ تلك اللحظة، أخذت حمامًا أزحت به ما تبقّى من ثقل الأيام الماضية، ارتديت أجمل ما لدي من ملابس منزلية، خرجت من الغرفة أستمتع بصوت ضحكات طفلي مع والده، حنون صلاح مع ابنه كما عمي، يعشق جو العائلة وألفة المنزل، كان يلعب مع سيف بمرح، يفتح له في هاتفه الجوال فيلمًا للرسوم المتحركة، يشاهدانه معًا بانسجام، الأحداث تسحرهما، أشعر أن صلاح لأول مرة يرى القط يجري خلف الفأر، يتابعه بنصف انتباه، ونصف قلبه معلق بالضحكة التي تشع من وجه طفله.

نظرت إلى تلك الزاوية التي كانت تجلس بها بالأمس... لقد غادرت، ولم يكن لها أي أثر.

شيئًا ما بداخلي لا يزال معلقًا بها، كأنها لم تبتعد؛ بل اختبأت داخلي، تنتظر لحظة ضعف لتعود من جديد كما ظهرت، ورغم صمتها... نظراتها تخبرني أن هناك الكثير.

جلست بجوارهما على الأريكة بهدوء، احتواني صلاح تحت ذراعه، أخذنا نشاهد التلفاز سويًا بعد أن قرر تحويل غرفة المعيشة إلى صالة للعرض السنيمائي، نشاهد معًا أحدث أفلام الرسوم المتحركة حديثة التقنية والتي لا تفرق بين صغير أو كبير؛ فالكل في مشاهدتها مندمج وسعيد، وبين الحين والآخر، كان يرميني بنظرات مطمئنة، يبتسم لي ابتسامة خاطفة، ويزيد من احتضاني كلما شعر شرودي، أحاول الاندماج معهما رغم ارتباك أفكاري، وبعد عدة دقائق أبعد صلاح يده عن كتفاي ونظر لي بابتسامة ماكرة اندهشت منها، وقال: ما رأيك أن نشاهد شيء تحبينه لن تستطيعي مقاومته؟

ضممت ما بين حاجباي باستغراب، وهززت رأسي وأنا أحاول التفكير فيما يمكنه جذبي بهذه الثقة التي يتحدث بها، وهو يمد يده نحو جهاز التحكم ويغادر الفيلم الذي نشاهده لذاك البطل الخارق ذو القناع، وتركه يتدلى من خيوطه الحريرية المتينة بين ناطحات السحاب، ثوانٍ وظهر على الشاشة طفل صغير يسير بخطى واثقة على أرض ترابية، ملامحه السمراء تضيء بحكايا

من زمن بعيد رغم أنه قريب، رن في أركان المكان سمفونية مصرية تحي صاحب الكف الصغير، الذي يعي معنى كونه مصريًا، ينساب في الحياة ببساطة، لا يعرف الزيف ولا التكلف، بطل لا يحتاج إلى مدينة صاخبة، ولا وحوش خرافية، يكفيه قلبه وأغنيته التي لا تكبر...

"بكار... بكـــار... بكـــــــار"

صدحت ضحكاتي وأنا أرى صلاح يحمل سيف بيدٍ وبالأخرى يضم كفه الصغير براحته وهو يردد الكلمات مع الأغنية التي لم أستطع بالفعل مقاومتها؛ لأجد نفسي أقف معهما أتمايل وأعترف أن تاريخ أرضه وبلاده يسير في دمه.

أضحك، تعلو ضحكاتي وسيف يحاول تقليدنا؛ فأشير عليه وأنا أخبره أنه هو ذو الكف الرقيق الصغير؛ فيرد بصوت منير متسائلًا: "يا بلادي أنا إمتى هكبر أطول النخل وأقدر؟"

كنت أعتقد أن الليلة ستمر بسلام، لكن من ذا الذي يستطيع العيش على الحافة بين الواقع والخيال، بين الحقيقة والوهم، دون أن يتصدع داخله؟!

وسط تلك البهجة التي ملئت روحي، ومع نغمات الأغنية، تبدلت فجأة الكلمات، وصدح التلفاز بنداءات بصوت ورد على نفس الألحان

"ياسمين... ياسمين... ياسمين"

البوح الثالث

الحقيقة لا تحترق

كنت أحتاج إلى أصوات مألوفة تملأ الفراغ داخلي دون أن تقترب من حدوده، منطق تدور حوله أفكاري دون الشعور بالهذيان، حين أصرَّ صلاح أن نقضي يوم في بيت عمي، لم أجادله؛ فأنا متعبة من التفكير فيما لا أستطيع البوح به، أفهم محاولاته إبعادي عن تلك الحالة التي تعتريني كلما انعزلت بنفسي بعيدًا عن صخب الحياة.

منذ أن وطأت قدماي عتبة بيت عمي شاكر، شعرت بشيء يشبه الطمأنينة القديمة، ذلك السلام الذي يتوغل في روحي مع رائحة الطعام، صوت الصحون، ضحكة سما، وطريقة عمي في نداء فريدة كأنها الوحيدة في هذا العالم.

لوهلة، كدتُ أصدق أن كل شيء بخير، تمنيت أن أبقى في تلك اللحظة، ولكن هناك شيء يدق داخلي كيَدٍ خفيّة على بابٍ مغلق، تنتظر أن يُفتح، وكان عليّ أن أفتح، أردت شيئًا يعيد الماضي، حتى لو لم يكن خالصًا من الشروخ.

بيت عمي كان دائمًا ملجأ لروحي، لا يسألني أحد فيه عمّا أشعر، ولا أُجبر على الابتسام، في كل مرة يرمم شيئًا داخلي؛ فأبتسم دون طلب، وأرتاح دون مقاومة.

أحب الدفء والألفة في بيت عمي، منذ وعيت على الدنيا، وهو رجل مسالم، طيب القلب، لا يحب الدخول في حوارات أو نقاشات حادة، مثله مثل كثيرين في هذه البلد، لا يريد من الحياة سوى أن يعيش في سلام، أن يظل معافًى، آمنًا، عنده ما يشبع يومه، هكذا يكون قد ملك الدنيا، لا يطمع في مالٍ ولا مكانة، طموحه بيته، وبيته هو مملكته.

حماتي، ملاك يحفظنا داخل الجدران، لم أشعر يومًا بحرماني من الأم بفضلها، رغم وفاة والدتي منذ صغري وهي الحضن الصادق الذي طالما احتواني، تتحمل سقطاتي وترشد خُطاي برفق.

أما سما، فراشة العائلة، لا تحمل للدنيا همًّا، ولا تحسب للأيام حسابًا، حاولت كثيرًا أن تُهوِّن عليَّ وحدتي، ولكن كيف لها، وهي نفسها تعيش مرارة الفقد؟

كان يومًا عائليًا رائعًا، لكنني لم أرغب في أن يمر كيوم عادي، في داخلي يقين بأن عليّ أن أخرج بإجابة... إجابة واحدة فقط... عن ورد، كنت صغيرة حين وفاتها، طفلة تصفعها الحياة بمعرفة معنى الفراق مرة بعد الأخرى، أعلم أني لو سألت زوجة عمي عن شيء يخص ورد، ستفعل كما اعتادت، تغلبني بكلامها الحنون، وتدعوني لعدم التفكير فيما مضى، تقول إن فتح دفاتر الماضي لا يفيد من مات ولا من عاش مرارة الفراق، فلا داعي للنبش في ذكريات لا تجلب سوى الهم والأسى.

بعد غداء صنعته زوجة عمي، تزينه الأصناف التقليدية التي تتقنها كإتقانها الحنان، انشغل الجميع بطقوسهم اليومية، جلست سما تلعب مع سيف، تتجاذب أطراف الحديث من حين لآخر مع صلاح المنشغل بهاتفه، غابت فريدة في عالم مطبخها الصغير، المليء بكل ما لذ وطاب، تستمتع بغسل الأواني وترتيب الصحون ببطء كأنها تهدهد طفل صغير.

توجهتُ حيث يعتاد عمي الجلوس على كرسيه الوثير، يحتويه كل مساء في الشرفة المطلة على الشارع العتيق، يحتسي الشاي في كوبه المفضل "استكانة"؛ فيكون المشروب بنكهة أصيلة كأصالته وهو يرتشف مزيج من الشاي الكهرماني بدفء القرنفل المسكن لجراح روحه اليومية.

جلست أمامه على الكرسي الذي سيصبح بعد قليل ملكية خاصة لزوجته، وسأقف فورًا بمجرد وصولها، لذلك حاولت ألا أضيع الوقت في حديث مرسل، ربما يأخذنا إلى حوارات جانبية لا يريد عقلي الانشغال بها.

قلت مباشرةً، بصوت خافت يملأه التوتر: هل لو سألتك عن شيء يشغلني، ستجيبني؟

نظر إليّ بهدوء، وقال: طالما لا تحمل إجابة سؤالك أذًى لكِ، سأجيب.

حاولت أن أدقق النظر في عينيه لأفهم، هل هو الوقت المناسب لحديثي؟ ثم حدت ببصري عنه، حتى لا أنسحب قبل أن أبدأ، وقبل أن أتراجع قلت بسرعة: عن ورد... يوم الحادث، لماذا كانت بمفردها في بيتنا القديم؟ لماذا لم يكن أحد معها؟

أشاح بوجهه قليلًا، تنهد، ثم ارتشف من كوبه رشفة بطيئة أكثر من اللازم، ربما يمنح نفسه وقتًا إضافيًا؛ فينقذه أحد من الرد عليّ، ثم قال ببطء، وكأن كل كلمة تستغرق منه وقتًا للتفكير: كانت الذكرى الثانية للثورة، حاولت وفريدة منعها من الخروج ذلك اليوم، فلا نضمن ماذا سيحدث في الشارع بعد كل تلك الاضطرابات التي من حولنا، لكنها عنيدة، كنا قد سمعنا عن مشاكل بدأت في الميدان، تحرشات وسرقات... أخبرتنا أنها ستكون مع أصدقائها، وقت بسيط ستمضيهم وتعود قبل صلاة العشاء.

صمت... طال صمته، قطعته قائلة: وماذا بعد ذلك؟

- بعض الأسئلة لا تحمل أجوبة، ابنتي، وبعض الأجوبة لا تُقال.

- عمي، أرجوك، لابد أن أفهم ما حدث، لا تتركني مع ظنون توشك أن تصيبني بالجنون.

أغمض عينيه لبعض الوقت، وكأن عويناته أشهرَت عليه سلاحًا كي يظل مطبق الجفون، ثم قال ببطء: تأخرتْ عن موعد العودة الذي اتفقنا عليه، بدأ القلق ينهشنا، هاتفها مغلق على غير عادتها، حاولت سما الاتصال بصديقت ورد الوحيدة التي تعرف رقمها، كانت الفتاة منهارة، كل واحدة منهن رأت ما يجعلها تحكي كابوسًا لا يُنسى، انقلب البيت، ضربت الثورة عقولنا، واشتعلت النيران في قلوبنا، لم نكن نعلم أنها اشتعلت فيها قبلنا.

كنت أستمع إليه كمن يشاهد كابوسًا يعرف نهايته لكنه لا يستطيع إيقاظ نفسه منه، كل كلمة كانت كالمطرقة على رأسي، أحاول استيعاب الجملة قبل أن تضربني التي تليها.

- سرتُ في الشوارع كالمجنون أبحث عنها، حتى جاءني اتصال من صلاح، كان منهارًا لا يعرف كيف يخبرني، قال إنه في انتظاري أمام منزل أخي القديم، لم أفهم السبب، ذهبت، وأنا لا أحاول التفكير في أي شيء، حتى رأيت الدخان من بعيد، هرولت كالمجنون، البيت يحترق، سيارات الإسعاف والمطافئ والشرطة تملأ المكان، وكأنهم نقلوا الثورة إلى باب منزل أخي، رجال الإسعاف يشقون طريقهم بين الدخان والحطام، يحملون وردًا أُخرجت من بين اللهب، يظهر وجهها كملاك نام في غير أوانه، صفارات الإسعاف تتصارع كأنها نحيب المدينة على ما حدث.

أردت أن أصرخ، أن أتهم العالم كله، لكن لساني خانني، وبقيت أنظر إليه بعينين أظلمهما رماد الحقيقة حتى أكمل قائلًا: لم تتحمل قسوة العالم ولهيب النيران، ذبل الورد قبل أوانه، حتى قبل أن تشهد الحدائق على تفتّحه.

صمت عمي، وصمدتُ، أحاول ألا أفكر فيما مرت به، أو كيف واجهت النيران وحدها، وبعد لحظات، حاولت ابتلاع غصّة علقت في حلقي، وسألته: ماذا عن التحقيقات؟

- أَلَم يكفِ ذلك، ابنتي؟

- ورد لم تحترق وحدها... احترق جزء من قلبي معها، جزء يطاردني، يؤرقني، يلحّ عليّ لمعرفة ما حدث.

- لو عرفتِ، لن تعودي كما كنتِ.

- تأخر الوقت كثيرًا على الخوف.

أخذ نفسًا ثقيلًا ونظر إلى كوب الشاي الفارغ أمامه يتمنى لو بقيت فيه بعض الرشفات لتساعده، ثم أشاح بوجهه نحو السماء التي أوشكت على استدعاء النجوم، وقال دون أن ينظر إلى وجهي: سُجِّلت القضية انتحارًا، أحرقت نفسها، ولم نستطع معرفة ماذا حدث لها وكيف وصلت إلى المنزل القديم.

أغمضتُ عينيّ بحسرة، والأفكار تتصارع في عقلي، سألته: لماذا قررت إنهاء حياتها بهذا الشكل القاسي؟

قال، وما زال ينظر إلى السماء، يناجي شيئًا في الأفق يظهر فوق أسطح المنازل المتناثرة وقد تكدست عليها الأسلاك الشائكة للهواتف والكهرباء، وأطباق استقبال القمر الصناعي المطل على العالم: هذا ما توصلت إليه التحقيقات، وأُغلِقت بعدها الحكاية، أصبحت ورد ذكرى احتفال بثورة... يعطي أملًا ويفقده أحلامًا.

تحركت من أمامه في صمت بعد أن فُتح داخلي دفتر صفحاته مؤلمة، لكن عليّ قراءته صفحة صفحة... حتى النهاية.

البوح الرابع

حين عبرت بين ظلين

موحش المكانُ كوحشةِ الفراق، رغم أن الشمس تسطع في وسط زرقةٍ لا متناهية، إلا أنها لم تستطع أن تبثَّ أي إحساسٍ بالحياة فوق شواهد القبور الواقفة بحدادٍ، كأجسادٍ خارت قواها من طول الانتظار.

أسماء الموتى تحاكيها أعشاب متسلقة، وبعض الزهور المبعثرة هنا وهناك، ينبعث منها رائحة الموت، كلما تقدمت خطوة تطايرت بقايا الأغصان الذابلة حولي، أسمع صوت خشخشتها كأنفاس مرهقة، تتهشم تحت قدميّ تتألم الفراق، وأنا أتقدم نحو القبر الذي يضم رفات والداي وبقايا ورد...

لم أكن وحدي... شعور ثقيل كان يسير بمحاذاتي، أنفاسٌ غير مرئية تخدش السكون، خطواتٌ خافتة لا تجرؤ أن تسبقني، لكنها تقتفي أثري، رأيت الحزن واقفًا بجوار أحد الزائرين، غلبه الشوق مثلي لعزيزٍ فارق أو ربما دفعته ذكرى غامضة للحضور، يحمل غصن نباتٍ أخضر يُسبّح بحمد ربه، ينتظر الموت عند قبر يتوارث بقايا عظام من بداخله؛ ففاز النسيان وانتصر الصبر بعد ما جفت الدموع مع مرور الوقت، كل شيء هنا ينتظر... ينتظر موتًا آخر، أو لقاءً لا تعرفه حياة...

كنت أحمل في يدي عقودًا من الياسمين، ذاك الذي طالما أحضرته لي أختي في صغري وهي تخبرني: "عقد الياسمين لأجمل ياسمين"

ولكن لم يعد هناك ورد ليفوح عطر الياسمين، فقط أردت أن أخبرها أنني ما زلت أحمل مع ذكراها وعدًا بالوفاء، لأمنح روحها طاقة من النقاء، ملتُ على الشاهد الذي كتب عليه "قبر عائلة الحاج حسني الفلاح"، علّقتُ عليه عقود الياسمين، وما إن انتهيت حتى لمحت ظلًا خافتًا يمر بجواري، لا يبدو له مصدر، رغم أن الشمس تراقب المكان من أعلى، ولا يمكن للظل أن يميل.

استقمتُ، وضعتُ يدي على قلبي بخوف، أحاول أن أهدئ من روعه، أفكر في الهرب من هذا المكان الذي وجدتُ نفسي فيه وحيدةً مع الموتى، نظرتُ حولي بحثًا عن أي شخص تسبب في رعبي، استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وقررت قراءة الفاتحة على من حولي والفرار منهم.

أسرعتُ بالانصراف، أدركت أن قرار زيارتي لهذا المكان بمفردي كان أكبر خطأ، ولكنني كنت واثقة من رفض زوجي لو طلبت منه الحضور معي؛ فدائمًا ما يتهمني بالتعلق بالماضي وأسر نفسي في ذكريات لا تفيد، يرفض صلاح زيارتي للموتى، يرفض الحديث عنهم والبحث وراء ذكرياتهم.

لم تكن هذه المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك، كثيرًا ما اعتدت زيارتهم منذ بلغتُ من العمر ما يسمح لي بالذهاب وحدي، دائمًا كان هناك شيء غامض يجذبني إلى ذلك المكان الذي يرقد فيه أقرب الناس إليّ، من حرمت منهم وأنا في أمس الحاجة إلى وجودهم، والديّ وورد بعد أن جمعهم الموت وفرقنا.

خرجتُ من دوامة ذكرياتي، أحاول إقناع نفسي بأن ما رأيته مجرد وهم ظل، ولكن ما إن نظرتُ إلى حيث وضعتُ الزهور حتى تراجعتُ للخلف بفزع؛ فقد ذبلت عقود الياسمين بسرعة لا تقدر عليها شمس الظهيرة الحارقة، وكأن روحها كانت تمر من هنا وأخذت معها عطره والحياة، أسرعتُ بخطواتي مبتعدة عن المكان؛ فكل الحلول المنطقية لم تُجدِ في تلك اللحظة.

وبمجرد خروجي إلى الطريق الرئيسي، حيث المارّون مبعثرون على الجانبين في انتظار عبور جنازة عابرة، يتقدمها نعش ويتأخرها مجموعة من النساء اللاتي يلتحفن السواد، عدا واحدة لفتت نظري ببياض ثوبها، ربما أمٌّ مكلومة أو زوجة مصدومة لم تعطيها الصدمة فرصة اختيار اللون أو الانشغال بكلام الغير، ولكن سرعان ما تبددت كل توقعاتي بمجرد التفات المرأة إليّ وتلاقي نظراتنا.

كدت أصرخ، وضعت يدي على فمي برعب، جحظت عيناي وأنا أُخبر نفسي بأنه يستحيل أن تكون مجرد صدفة، تشابه الملامح، شعرها الأسود كظلمة الليل المسدل خلف ظهرها، يظهر من تحت وشاح أبيض خفيف، وعيناها الشرقيتان يبرزهما كحلٍ غزير، ولكنهما كالزجاج، نظراتهما ثابتة كالموتى، كيف لمن تسير في جنازة عزيز أن تنظر إليّ بهذا التركيز؟

رمت عليّ ابتسامة غامضة، لا تمت بصلة لما يحمله الموقف من كآبة، ابتسامة كالتي يمتلكها مصاص الدماء، بها وعيد وتهديد لك بالفناء من عالم البشر، لكنها كانت هي بكل تفاصيلها التي أعرفها جيدًا.

لم أترك الخوف يسيطر عليّ هذه المرة، سأتجه إلى حيث رأيتها، وقد توقف الموكب وبدأت مراسم الدفن، الأدعية تصدح في المكان، تدعو للمتوفى بالثبات في أول لحظاته في القبر، اندمجت بين النساء، أنظر في الوجوه، أسألهم إن كان بينهن من ارتدت الأبيض! وأمام نظراتهن المستنكرة أو غير المبالية؛ فأحزانهم أهم من ثرثرة ساذجة، انسحبت بهدوء مسرعة، أخبر نفسي أنه ربما كان وهمًا وليست روحها التي تطاردني.

كل خطوة خطوتها بعيدًا عن المكان تشدني أكثر إلى حيث كانت تقف، أحسست بشيء غير مرئي يسحبني كالمغناطيس، وكأنني في دوامة لا مفر منها، شعرت أني انتقلت بعيدًا حيث منزلنا القديم، غرفتي التي شاركتني بها، كيف أراها الآن ولم يؤثر بها الحريق، هناك بنفس ملابسي وملابسها البيضاء، سني هذا وليس حين غادرت المنزل منذ وفات والديّ.

شعرت بيد باردة تمسك معصمي، تجذبني إلى أسفل، تسحبني من العالم الذي دخلته، أغمضت عيني وفتحتها محاولة استيعاب ما يحدث لي؛ فوجدت نفسي في زاوية الطريق بعيدًا عن المارة، لا أعرف كيف وقفت في هذا المكان بعدما كنت أسير، هرولت مبتعدة حتى كدت أتعثر في طفلة تلعب بحصى الأرض، تضعه فوق بعضه وتعد كم واحدة ستبقى صامدة

قبل السقوط، رفعت رأسها تنظر لي بابتسامة بريئة؛ فبادلتها الابتسام ممتنة لوجودها، وقفت فجأة، اقتربت مني وهي تشير لي أن أميل عليها؛ ففعلت، تحدثت بهمس وكأن حولنا من يتنصت علينا: قالت لي أن أخبرك أنها تنتظرك هناك لتدخل معكِ.

استقمت سريعًا وقد سرت قشعريرة في ظهري، انتقلت لكل أطرافي، وقبل أن أعي ما قالته، انطلقت الطفلة راكدة، لتختفي في لمح البصر بين الطرقات، أيعني ذلك أنها رأت ورد مثلي؟

قررت العودة إلى المنزل، رغم أن عقلي كان يعترض، يريد أن يبحث عنها في الوجوه وبين الموتى علني أستطيع التواصل معها، كيف انفصلت عن المكان وكيف عدت إليه؟ أعلم أن صلاح لن يصدقني، سيظنني أتخيل كالعادة، لكنني رأيتها ولم يكن في الأمر خيال، حقيقة تتراقص بين ظلين لا أستطيع اثبات وجود أحدهما ماضٍ أو حاضر.

البوح الخامس

مطر أسود وحقيبة

تراودني خيالات وكوابيس لسنوات طويلة، لا أتذكر منذ متى بدأت، ظلت تتزايد حتى باتت لا تفارقني أغلب الوقت، عام بعد عام كنت أتأكد أنها تنتقل لمرحلة أكبر، كلما احتفلوا بالثورة، شعرت أن شيئًا يُنتزع مني، يحزنني ويوجع فؤادي، ولكني لم أكن أدرك السبب حتى حديث عمي، وكأنها كلما احتفلوا بذكرى الثورة، يزيد إصرارها على العودة والانتقام.

لم يكن الطريق إلى بيت العائلة غريبًا عني، لكنه بدا هذه المرة أطول من اللازم، ربما لأنني أحمل سيف بمفردي! وقفت أمام الباب الذي ضمّنا خلفه سنوات، أنا، ورد، صلاح، وسما التي كانت دومًا بيننا، في العمر والذكريات، مؤكد ستتذكر ما لم أتذكره.

بمجرد لمسي لجرس الباب، راودني شعور بتيار كهربائي يجتاحني، نظرت إلى سيف المستكين على كتفي بأمان، لو كانت كهرباء لطالته معي، ضممته بشدة أستمد منه الأمان لا العكس، ولكن كانت ورائي أنفاس تنتظر أن تدخل معنا، لم أحاول النظر إلى الخلف، رغم أن هذا المكان دائمًا ما كنت فيه، هذه المرة مختلفة؛ فمن الواضح أنها عرفت أنني جئت من أجلها.

فُتح الباب؛ قطع أفكاري وتسللت مخاوفي تسبقني إلى الداخل، ظهرت سما بابتسامتها الهادئة كعادتها، وباندهاش قالت: أهلًا ياسمين.

بادلتها الابتسامة رغم ما يعتمل بداخلي، تجاوزتها ودخلت، أنظر حولي وكأني لا أعرف البيت الذي عشت فيه سنوات طويلة، أبحث عن تلك الأنفاس لأتأكد أنها دخلت معي.

- لماذا لم تخبرينا بقدومك؟! كنت على وشك الخروج.

- أريد التحدث معك بعض الوقت، لو لديك أمر هام، انصرفي وسأنتظرك، لقد أخبرت صلاح أني سأمضي اليوم معكم.

التقطت سيف، تحتضنه وتقبّله بوحشة، ثم جذبتني من يدي نحو غرفتها وهي تصيح: أمي، ياسمين هنا!

خرجت زوجة عمي من المطبخ مسرعة بابتسامتها الحانية، اقتربت مني كعادتها تحتضنني؛ فغصت بين ذراعيها، أستدعي الحنان الذي أكتسبه منها لأعطيه لطفلي، ربّتت على وجنتي بحب، ثم أخذت سيف من سما وغادرتنا وهي تدلله، انعزلت عن كل ما حولها لتعيش معه في عالمه الصغير، وستظل هكذا لوقت لا حدود له.

دخلتُ مع سما الغرفة، ظلّت تدقّق فيّ للحظات قبل أن تقول بشك: ماذا وراء هذه الزيارة؟

زفرت نفسًا بصعوبة قبل أن أخبرها ما أفكر فيه: رأسي ستنفجر سما، ورد تطاردني، كنت صغيرة والجميع تعمّد إخفاء الكثير من التفاصيل عني، لمَ يستمر ذلك الآن؟

- هل سيتغير الواقع، لو أن هناك شيء مؤلم ستستطيعين عليه صبرًا؟

- حينها سأكون قد علمت الحقيقة، وتأكدت أن ما ينتابني مجرد أوهام.

- تحتاجين إلى زيارة الطبيب النفسي ياسمين، ليس لزوجك ذنب فيما يحدث، ما يسيطر على عقلك وعواطفك سيؤثر على طفلك، لا تكوني أنانية.

- تطلبين مني أن أنسى ورد؟! ألم تكن صديقتك وأختك كما كنتِ تقولين دائمًا؟

- هي من اختارت، كثيرًا ما نصحتها أن تركز في دراستها وحياتها وتبتعد عن هذا الطريق، والنتيجة أنها كانت ضحية لشيء لا نعرفه.

- وما هو ذلك الطريق الذي تتحدثين عنه؟

قلتها بريبة تسللت داخلي؛ فلأول مرة أتأكد أن سما تعرف شيء مهم.

ـ لا ألوم من عاش أو من مات، ليس لنا يد في أمور كثيرة في حياتنا، من مات عند ربه الآن وهو أأمن عليه من طمع العالم، في سلام أبدي بعيدًا عن زيف الدنيا؛ أما من عاش فعليه مقاومة الحياة والاستمرار حتى يحين له لقاء ربه، إنها سنة الحياة.

مسحتْ دمعة حاولت منعها، ورغم ذلك لم ترحمني، أردفت قائلة: الحيّ أبقى من الميت ياسمين، افهمي ذلك جيدًا، حتى لا تجدي نفسك بمفردك، تحيين وهمًا يدمّر أسرتك وروحك، لم يعد هناك داع للبحث حول أسباب حادث مر عليه سنوات.

ـ سما، أرجوكِ، لا أطلب منكِ سوى المساعدة، لتهدأ هذه الأفكار التي تشوّش على حياتي، أنا واثقة أنها تحاول أن تعطيني إشارة لشيء ما.

ـ وما الذي بإمكاني أن أساعدك به؟

ـ أي خيط أصل به لأصدقاء ورد، أي اسم تتذكرينه، أي معلومة، أرجوكِ سما لن أطلب منك سوى هذا الطلب، لو ظللت هكذا سوف أجن، حتى وإن كنتِ تعرفين شيء تخفيه عني، لن أسألك، فقط دليني على الطريق.

صمتت لحظات، وعيناها تسبحان حولها كأنها تحاول أن تجد قشة يعتقد الغريق أنها ستنجيه، أخذت نفسًا أخرجته بهدوء أثار استفزازي وقالت: لدي حقيبة بها بعض متعلقات ورد القديمة، كانت معها عندما انتقلت للعيش هنا بعد وفاة عمي حسني.

ـ ماذا؟! لمَ لا أعلم عنها شيئًا؟

قلتها، وعقلي يكاد يستشيط غيظًا منها، ومن كل من تسبب في طمس ذكرى أختي من أمامي؛ فيزداد داخلي إصرار أن أبحث عن كل شيء بعيدًا عنهم جميعًا.

ـ كنتِ صغيرة حينها، وبعدها غلب النسيان الذكرى، ولم يعد هناك داعٍ للتقليب في الماضي، وها أنا ما زلت أحتفظ بها دون علم أحد، لربما كانوا أخفوها عني أنا الأخرى.

مسحتُ دموعٍ انهارت معي ولم تعد تستطيع الصموت، وأنا أرى ورد تظهر أمامي، تمشي في الهواء حتى جلست على طرف الفراش، تنظر أرضًا بأسى، حزينة مما سمعت، حتى سما سعت أن تُخفي ذكراها، كما لو أنها لم تولد يومًا، لم تبدي أي رد فعل أو تنظر إلينا، رغم تحرك سما وعبورها لها، كانت كوميض من نور لا يراه سواي، أو شبحًا شفيفًا من هولوغرام، يطلّ من عالم لا يُرى، تركتُها ساكنة هذه المرة ولم أحاول إزعاجها، كانت هادئة كالملاك، ملامحها مستكينة رغم بياض بشرتها الشديد.

جذبت سما كرسي المكتب بهدوء، ووضعته أمام خزانة الملابس، وقفت عليه برشاقة ساعدتها أن تشب على أطراف قدميها؛ لتلتقط الحقيبة الساكنة في عزلتها بالأعلى، أتأملها كما أتأمل تلك الروح الجالسة أمامي تنتظر معي ذكرياتها، ثلاثتنا متشابهات إلى حد كبير بحكم الوراثة، شعرنا الأسود كعاصفة ليل لا تهدأ، ينسدل على أجسادنا الخمرية كما لو أنه يحمل بين خصلاته حكايا لم تُحكَ بعد، ظلمة ليله أسدلت ستائرها في يوم كاحل، هكذا نحن، وهكذا كانت.

وضعت الحقيبة بيننا، أنا، هي، وورد الساهمة في ملكوتها، عيوننا السوداء تتلألأ نجومها بلمعة حزن، ومطر أسود لطّخه الكحل العربي، أما هي، كما اعتدت عليها منذ قررت الظهور أمامي، عيناها زجاجيتان لا ترمش جفونهما، كحلهما كزخات مطر تجمدت تحت جفنيها؛ فصنعت خطوطًا من الثلج الأسود، نظراتها ثابتة كتمثال من الشمع، إن حاولت لمسه أحرقني أو انصهر.

أما الحقيبة فكما هي بيننا، أخشى فتحها كأنني سأرتكب جريمة نبش القبور.

البوح السادس

شجرة السيدة العذراء

أمسكت بالحقيبة القديمة بعد أن استدعت الذاكرة شكلها بمجرد رؤيتها، وضعتها سما وجلست تراقبني دون أن تنطق، كانت تبدو وكأنها خبّأتها في باطن الأرض فكساها التراب، فتحتها بأصابع مرتجفة تستعد لنبش قبر من الذكرى، انتفض الغبار منها، ثم تلته الذكريات التي بدأت في التسلل إلى أنفي.

مزيد من الحزن يخرج مع عطرها مصدره علبة صغيرة مغلقة، دفتر مهترئ الغلاف التهم الزمن أطرافه، وعلى صفحته الأولى كتب بخط مزخرف "ورد حسني"، مشط خشبي به شعرة هربت من القبر، بعض الأوراق المطوية بعناية، صور قديمة تجمعني بها أنا وسما في طفولتنا، وصور تجمعها بزملائها، يرتدي الجميع عباءة التخرج السوداء، يرفعون القبعات في الهواء كعصافير محلقة نحو الأحلام.

ما هذا؟ ورد ترتدي ذلك الفستان الأبيض ذاته الذي يطاردني في كل رؤيا، تركت الصور قبل أن أتورط في اكتشاف آخر، ولكن سقطت عيناي على وشاحها الأبيض ملقى بقاع الحقيبة، يؤكد لي أنه حقيقة وليس من نسج خيالي.

رفعت رأسي أنظر إليها حيث تجلس صامتة، إنها بنفس المظهر، فستانها الأبيض ووشاح الرأس، أفقت على صوت سما تقول: ياسمين، انظري!

برقت عيناي بمجرد أن رأيت ما تشير عليه... هاتف صغير ينزوي جانبًا، قديم، مشروخ أحد الأطراف، قابع في قبوه منذ سنوات ينتظرني، يعرف أنه سيكون له حاجة في يوم ما.

نظرت إليه، لمسته، عدت أنظر إلى طيفها أمامي... أو روحها، لم يعد يفرق معي، فقد اعتدت وجودها ككيان لا يراه غيري، تمنيت أن تبتسم، أن تسلّمه لي بنفسها كما كانت تفعل معي وأنا طفلة، ولكنها خذلتني، وجهها لا ينبض بأي تعبير سوى النظر إليّ... أحيانًا.

قلّبت الهاتف في يدي، أحاول تذكّر كيف كان يُفتح هذا النوع، كم من مرة أعطته لي لألعب به؛ فلم يكن عندي هاتف حينها كأطفال اليوم، نظرت إلى سما، كانت تراقبني عن كثب دون محاولة إخراجي من الحالة التي تعيشها معي.

ـ لم يكن هذا آخر هاتف لها قبل الحادث.

تفوهت بها سما بعد فترة، معتقدة أنه قد غاب ذلك عني في خضم تأثري، حرّكت رأسي بالإيجاب، قائلة: نعم، أعلم، ولكن ربما أجد به ما أبحث عنه من أسماء أصدقائها.

فتشت عن شيء آخر قد يكون دليلًا أو إشارة، أخذت ما حصلت عليه ووضعته داخل حقيبة يدي؛ لأُخفيه عن أعين فريدة وصلاح من بعدها؛ فأنا في غنى عن تفسير ما يرى الجميع أنه يجب عليّ نسيانه، ونوبات عصبية زوجي الغير مبررة كلما علم انشغالي بالبحث خلف ماضي ورد.

- سما، لا تخبري أحد بأمر هذه الحقيبة.

- واثقة من رجاحة عقلك، ربما عندما تعلمين كل شيء بنفسك، يهدأ قلبك وتعتدل حياتك، لا تقلقي لن أخبرهم.

.....

شعرتُ أني بحاجةٍ مُلحّة للابتعاد عن المكان، كان عقلي مُشوَّشًا، الأفكار تتصارع في رأسي تصنع سحابةً ثقيلة لا تريد أن تنقشع، غادرتُ المنزل دون حديث ولا استئذان، لا أدري إلى أين أذهب، خطواتي مثقلة، الأرض تحاول أن تمنعني من المضي، أسير بلا هدف، ورغم ذلك تعرف قدماي طريقهما جيدًا، تفهمني الشوارع كفهمي لها، تحفظني البيوت كما أحفظها، تناجيني الأرصفة، تخشى عليّ من السيارات المسرعة؛ فتفسح لي الطريق.

وجدتُ نفسي في الحديقة المجاورة لحينا، اعتدت الجلوس فيها كلما غلبني الحنين، فكم من مرةٍ صاحبت ورد إليها، تجلس تحت ظل شجرة الجميز العتيقة الموجودة في أطرافها بالقرب من النهر، تستظل بأغصانها، وكأنها حتحور سيدة الجميز، خرجت من جذع الشجرة لتمنح من حولها الحياة،

تتابعني بنظراتها وأنا ألهو بحرية كفراشة طليقة تشعر أنها ملكة على كل الأزهار.

التقطت عيناي الشجرة المعمرة، تقف شامخة بجذعها العريض، حارس صامد على بوابة الزمن، تحتفظ في تجاويفها بأسرار العشاق، ونقوش محفورة باعترافات العابرين لن يمحها الزمن، دعوت في سري أن تتركها لي الفتاة الجالسة تحتها الآن، ولكن، ما إن اقتربت، حتى وجدتها... ورد، أعادتها حتحور إلى الحياة بشربة ماء من جذع الشجرة.

لم أندهش هذه المرة، لم أفزع، ولم أفرّ هاربة؛ بل جلستُ إلى جوارها بهدوء كأنما أعلم أنها بانتظاري، لكنها لم تلتفت إليّ، ولا تشعر بحضوري.

كانت تنظر أمامها، تتابعني طفلةً تخشى ابتعادي عن ناظريها، كأن الزمن توقف حين كنت وكانت، الهواء باردٌ بعض الشيء، يتسلل عبر ثنايا ثوبي الخفيف أصابعه تسرق ما ليس حقًا لها؛ فأضمه إليّ وأحتضن نفسي، لم أستجب لخدر البرد؛ فهكذا هو الربيع يحمل الدفء والخذلان في آنٍ واحد.

كنتُ ذاهلة، أحاول أن أجتاز خطًا غير مرئي بين الحاضر والماضي، الحقيقة والحنين، وضعتُ يدي على ركبتي عندما شعرت بحرارة كف تلامسني، لكنها لم تتحرك!

أغمضتُ عينيّ لحظة، أحاول أن أتنفس بعمق، صور الماضي لا تتوقف عن الهجوم، ورد... الفتاة التي كانت تملأ الدنيا بهجة، تلك الأحاديث التي جمعتها بسما عن الأحلام، الأفكار، الطموحات، الفن، وآخر ألبومات

المطربين الجديدة وتلك الأغاني التي تخطف القلب، وحتى السياسة، وتطور الأوضاع العالمية وخاصة بعد برجي التجارة وغزو العراق، كنت أسمعهما باهتمام، كانت مرآتي على الدنيا بكل تفاصيلها.

فتحتُ عيني، نظرتُ إلى الحقيبة التي أحمل فيها ذكرياتها، مددتُ يدي والتقطتُ زجاجة العطر، قرّبتها من أنفي لأسترجع رائحة أحضانها، إنه عطر اللافندر المفضل لها؛ فتسلّلت الذكرى داخلي مع الرائحة...

عاد بي الزمن إلى ذلك اليوم في بيت العائلة، ليلًا.

ضجيج في كل ناحية.

مكالمات تتوالى.

وجوه مذهولة.

كل شيء كان صاخبًا.

إلّا قلبي... كان ساكنًا سكون قبر ينتظر اللحظة الحاسمة.

عمي يتحدث بصوت عالٍ في الهاتف، يقطع المكالمة ليجري أخرى.

صلاح يدخل المنزل مسرعًا وهو يلهث، يتبادل نظراتٍ عاجلة مع والدته، ويشير لها بلا فائدة.

فريدة تولول بصوت مرتفع، تضرب كفًا بكف، تبكي بحرقة، كأنها تعرف ما لم يُقال بعد.

لا رائحة في المنزل سوى رائحة الخوف، فلقد خجلت رائحة الطعام ورفضت أن تستكين في الجوف.

- استرها يا رب...

تصيح بها بين الحين والآخر.

سما تنظر إلى الجميع بعينين جاحظتين، تشعر أن شيئًا فظيعًا يحدث، لا أحد يلتفت لها... ولا لي.

خرج عمي وصلاح على عجل، يتبادلان كلماتٍ سريعة عن قسم الشرطة، المستشفيات، أسماء الأصدقاء.

سما واقفة عند الشباك، تراقبهما وهما يختفيان، لعلها تظهر.

مرّت ساعات... ثقيلة... مرعبة.

سما تبكي، وأنا لم أبكِ.

كنتُ أحدّق في الباب، أنتظر أن تعود ورد، وتُكذّب هذا الكابوس الذي لا أعي تفاصيله.

ثم عادا بعد ساعات، كنتُ قد غلبني النوم قرب الفجر، واستيقظت لا أعرف كم قضيت من وقت، عمي وصلاح في المنزل، فريدة يكسو وجهها الحزن، العيون مذهولة، دامعة، وسما الوحيدة التي تبكي بوجع.

سألتهم: أين ورد؟ ماذا حدث لها؟

لم يقل أحد لي شيئًا، فقط التقطتُ عبارة واحدة رن صداها، صرخت بها زوجة عمي بحسرة؛ فأسكتها الجميع، وبعدها لم يعد لسماع أي شيء معنى:
آه يا ابنتي.
سقط كل شيء داخلي دفعة واحدة، الضجيج، الأصوات، الأسئلة...
لم يتحدث أحد أمامي عما حدث بعد ذلك، كأن موتها كان سرًا ينبغي دفنه معها، وأقاموا للسرّ عزاء، دفنوه هو الآخر وإلى الأبد... لا لشيء، فقط ليتابعوا العيش دون انكسار، لم تكن ولم تولد، وعادت الحياة في كل شيء حولنا... هدأت ثورتهم، حسرتهم، جبرت كل آلامهم، لم يعد هناك أثر لربيع به ورد.

البوح السابع

قربان الورد

في الحديقة، وتحت أذرع الشجرة الرحيمة، أفقتُ على صوت صلاح الغاضب يصيح بي بعتاب: أيعقل هذا؟ غابت الشمس ولم تعودي بعد! كيف تظلين كل تلك الفترة بالخارج دون أن تخبريني؟!

التفتُّ حولي بدهشة، كنتُ قد غادرتُ منزل عمي الواحدة ظهرًا... كيف مرّ كل هذا الوقت دون أن أشعر؟!

نظرتُ حيث كانت تجلس... ليس لها وجود، اختفت في لمحة من البصر، رفعتُ رأسي ببلاهة أنظر إليه وهو يجذبني من الأرض لأقف، وسألته: كيف عرفت أني هنا؟

صمتَ لحظات، يدقّق النظر في عيني كما يفعل دائمًا وكأنه يقرأني، ثم قال بشك: ياسمين، لقد أجبتِ على اتصالي منذ قليل وأخبرتِني أنكِ في الحديقة.

أعجَزت الصدمةُ لساني، لا أتذكر هذا الاتصال... لا أتذكر أي شيء منذ جلستُ هنا سوى الذكريات! هل ردت عليه هي بدلًا مني؟

غادرتُ معه بصمتٍ واستسلام، أخذنا سيف من منزل عمي بعد عتابٍ ولومٍ من الجميع، توبيخ اعتدت عليه مؤخرًا، كأنني كدت أُفلت من بين أيديهم كما أفلتت ورد ذات مساء!

ودون أي تبرير مني، عُدنا إلى بيتنا، لم يقل صلاح سوى جملة واحدة: لا بد من ذهابك إلى الطبيب النفسي في أقرب وقت، لن أتركِكِ في هذه الحالة أكثر من ذلك، ستقبلين دون أي نقاش، حالة التيه والشرود التي تعيشين بداخلها زادت، لم أنتظر حتى يحدث شيء لك أو لسيف لا قدر الله.

.....

بمجرد وصولنا المنزل؛ دخلت الغرفة بخفة مبتعدة عن توبيخٍ لا طاقة لي به، لكن شيئًا غريبًا انتابني... شعرت أن هناك من يتحرك معي، لا خلفي ولا بجانبي، يندس داخلي، يتنفس أنفاسي.

وضعت سيف وسط الفراش، كان نائمًا كالملاك، ملامحه ساكنة مطمئنة، لكنه بدا مختلفًا! لقد أصبح أكبر في لحظات، أو كأن جسده يحمل شيئًا لا يخصه، تنفست فجأة، شهقة باردة شقت صدري.

نظرت حولي، لا أحد، الباب مغلق... لا أتذكر أنني أغلقته عندما دخلت، شاشة الهاتف أضاءت ثم انطفأت... الهواء أثقل، كأن أحدًا مرَّ لتوه بجواري.

مجرد وهم... مجرد وهم

همستُ بها لنفسي، أرددها لأطمئن، لكن قلبي لم يصدقني، ثم...

"أنقذيني".

كان الصوت هذه المرة أقرب، واضحًا، مألوفًا كجرح لم يلتئم.
ارتجف كل شيء فيّ، جلست على الفراش أحتضن نفسي، أتحسس بأناملي ذراعيّ لأبث بداخلي الأمان.
لكن قلبي... قلبي يعرف هذا الصوت.
"ورد؟!"
خرج الاسم مني همسًا، لكنه لم يختفِ، صداه بدأ يملأ المكان... يسحبني لعالم بعيد أراه الآن كأنه واقع، واقع يفتح فمه ليبتلعني، ثم لم أعد في الغرفة، كنت في مكان آخر أنظر من أعلى، أحلق فوقه كطائر جريح يراقب المكان من بعيد، لا أجرأ على الهبوط فتنهشني صقور الأرض، ولم أستطع الابتعاد فيغيب عني ما أبحث عنه، قررت الصمود دون تراجع، ربما أكون أنا رسول سليمان، ألقي عليهم كتابًا كريمًا به اسم الرحمن، قبل أن ينتقل عرش الحقيقة في طرفة عين، ويعلم الجميع كم ظلموا أنفسهم حين اختاروا النجاة بالصمت، وصدقوا الزيف حتى صار حقيقة عارية تتوارى خلف بئر الكذب.

.....

تتلاشى أصوات الهتافات شيئًا فشيء بعد أن كانت تصدح في كل مكان، باتت بلا قيمة وسط الصرخات الأخرى، أبيح اغتصاب العرض كما اغتصاب الحق، لم يكن الميدان كما عُرف من قبل، لم يعد وطنًا صغيرًا يحتضن أبنائه، يرعاهم، يبث فيهم الأمل للنجاة، كان وحشًا انقلب على فتياته، الأيادي تتكاثر، أفاعٍ تنهش، تجذب، تخنق، تخطف الحرية، تسخر من العدالة، تمنع الهواء عنها، لتصبح كغيرها ضحية... أو أُضحية!

الظلام يزحف على الميدان، يبتلع كل من فيه، لم يكن هناك ضوء سوى وهج الكاميرات المحمولة، تلتقط صورًا مشوهة لحقيقة لن يفيد توثيقها، وسط الصرخات، كان هناك همس في أذني، صوت متقطع يكرر اسمًا واحدًا...

ورد... ورد...

لكن أحدًا لم يسمعه سواي!

دوائر بشرية منظمة تحلق حولهن، لا شفقة بصرخاتهن وتوسلاتهن من أجل الحفاظ على شرف يذبح على قارعة الطريق دون رحمة، انهار قانون الميدان، واعتلت الوحوش المنصة، يسخرون من إنسانيةٍ سقطت دون مقاومة، فلقد غاب القانون بفعل فاعل وحل محله قانون لا يمت للغاب بصلة؛ ففي عالم الحيوان أشياء غابت عن قلوب أُناس شبعت بطونهم بالمال من أجل فض بكارة الثورة، أصبح لكل مغتصب أثيم دور في مسرحية هزلية دون خجل، ينزعون ما تبقى من روحها المنهكة وجسدها الهزيل.

تلوح لي من بعيد طالبة النجاة، أسمع أنفاسها المتسارعة، أشعر بنبضاتها الهاربة تتوسل لي، فمن ينقذ ورد حين يصبح الورد قربانًا؟!

تتلاقى عينيها بعينيّ، تلك النظرات تحمل أكثر من استغاثة، أهو لوم على ذنب لم أقترفه؟ أم تحذير من شيء لا أعرفه؟ أم أنها تريد أن تسلمني سيف نجاتها لأنقذها؟

أشعر بكل ما يحدث لها، صوت أنينها أسمع صداه من بعيد، هل من منقذ في بحر من الخسة يندى له الجبين؟!

صرخة مكتومة تتفجر داخلي، جسدي يقشعر وكأن أياديهم تخترق مسامي، ترتعش أطرافي كما لو كنتُ أنا المصلوبة هناك، كيف أنقذها وأنا هنا معلقة على أطراف المشهد بين الماضي والحاضر؟!

هل أراها حقًا؟ هل تستغيث بي من بُعدٍ آخر؟ أم أن عقلي يصنع أشباحًا من ماضٍ لم أعشه وذنب لم أقترفه؟!

لمسات تفعل بي كما فعلت بها، تنتهكني بلا رحمة، لمَ شلت حركتي وأنا هنا؟ جحظت عينيها ويد تطبق على أنفاسها بقسوة، تخنق صرخاتها وتلتهم روحها، تقيدها من خلاف، سلبت إرادتها كما ملابسها، ولم تعد تملك سوى نظرات تتشبث بي، سأصرخ ربما يشعر بنا أحد في زمنها أو زمني، المهم أن تنجو، ولكن، وقبل أن يخرج صوتي، اختفت أنفاسي أنا الأخرى، أحدهم عبر من بوابة زمنية لينهي حياتي، ولم أعد أستطيع التنفس.

.....

صرخاتي استطاعت أخيرًا أن تتخطى جدار الصمت الذي حاصر عالمي لوقت لم أستطع تحديده، أنظر حولي برعب، أبحث عن تلك اليد التي اختطفت أنفاسي مع كل همسة من صوتي المكتوم، لم يكن هناك سوى زوجي الذي اندفع إليّ بفزع فور سماعه صرختي، وطفلي المسكين يبكي برعب، يرتجف كأن ما رأيته عبر إليه يوقظه من دفء نومه.

ولكني سمعت همسًا مرة أخرى، نفس الصوت، نفس النداء... "أنقذيني"

أدرت رأسي ببطء، ظلها واقفًا خلفي بسوادٍ كالح، فقط كانت... ظل وعينين جاحظتين.

البوح الثامن

ابقَ ولو كنت صمتي

وجدت نفسي مازلت في غرفة سيف، تلك الغرفة التي دخلتها لأطمئن أنه يغوص في ثباته، يلعب مع الملائكة في أحلام بريئة، أتابع أنفاسه التي تربطني بالحياة، صلاح عند الباب، وقف ينظر إلينا، يحاول أن يفهم سبب هلعنا؛ اقترب من طفله يحمله برفق بعدما وجدني تائهة، يبعث فيه بعض الطمأنينة التي سلبتها منه، يسألني بين الحين والآخر: ماذا حدث؟!

وضعت يدي على صدري، اتلفت حولي محاولة استيعاب أين أنا، باحثة عن كلمات تشرح ما عشته؛ كيف أُقنعه بأنني كنت هناك، معها، رأيت ما حدث لها منذ سنوات، وربما لو استطعت الحركة لكنت أنقذتها.

هدأ الطفل أخيرًا، أما قلبي فلم يهدأ، ولا أعتقد أنه سيعود مجددًا لهدوئه، وضع صلاح سيف على الفراش بحرص، ثم جلس جواري، جذبني إليه بلطف، أراح رأسي على صدره؛ فأغلقت عينيّ في سكون، ضمّني بشدة، يحاول أن يزرع فيّ الأمان الذي افتقدته طوال لحظات لا يفهمها، شعرت بضربات قلبه الثابتة تدعو قلبي للراحة وقد كان في سباق مع الزمن؛ فلبيت النداء.

لا أعرف كم من الوقت مَرَّ وأنا على هذا الوضع، فقط تركت نفسي للأمان على صدره، حاولت أن أستدعي أمامي تلك الصور التي لا أستطيع فهم كيف رأيتها بهذا الوضوح لأخبره عنها، ولكني وجدت في عينيه نظرات يختبئ خلفها الشك.

- لقد شاهدت كل ما حدث لورد.

همست بها بتردد ظهر في صوتي المتقطع، عقد ما بين حاجبيه بدهشة، حرك رأسه بعدم فهم وقال وهو يحدق في عيني: أنمت بجوار سيف بهذه السرعة؟

- لا تسخر... لم يكن حلم.

قلت ذلك وكأنني أحاول أن أكسب ثقته في حديثي وأن يصدق ما أقول.

- لقد رأيتها تشير لي أن أذهب لأنقذها، كانت تستنجد بي، ولكن جسدي أبي أن يتحرك من هذا العالم ويذهب إليها.

ضمني مرة أخرى بين ذراعيه، شعرت بشدة قبضته وهو يحتويني، يمرر أصابعه على شعري، كما يفعل دائمًا عندما أستكين بالقرب من قلبه، أخذ نفسًا عميقًا شعرت بنسماته تغازل خصلات شعري، وقال: كلما اعتقدت أنكِ تجاوزتِ تلك المحنة؛ أكتشف أنكِ تغرقين فيها، مَرّ أكثر من عشر أعوام ياسمين وما زلتِ عالقة وكأنه اليوم، تمنيت أن يخرجكِ زواجنا من وحدتكِ، ولكنكِ مصرة على التعلق في ماضٍ لن يذيدنا إلا إرهاقًا لأرواحنا.

- لم يكن حلم... صدقني.

قلتها أتوسل إليه لعله يعطيني فرصة ويستمع لتفاصيل ما رأيته، أردفت بألم: لقد شاهدتها، كنت أشعر بكل يد...

قطعت كلامي بعدما أدركت من انتفاض عروق جبينه أني سأرتكب خطئًا، أصابعه على شعري تحولت لملقط يجذبها دون أن يشعر، كانت أنفاسي قد انتظمت، وبدأت أتجاوز تلك الرؤية، حتى شعرت بقبضته قد هدأت بعد فترة، رفع يداه عني ببطء، وقف وهو ينظر لي كما اعتاد، يتأمل تفاصل وجهي، يفعلها منذ زمن وكأنه لم يعتد رؤيتي بعد، أو كما يشعرني دائمًا أنه لا يُصدق وجودي، مال مقبلًا جبيني بحنان تمنيت أن يقف معه الزمن، وقال بصوت لا يشبه صوته: ياسمين، أرجوك، من أجلي... من أجل طفلنا.

ثم غادر الغرفة بهدوء، بعد أن جعلت كلماتي الهواء ثقيلًا لدرجة أنه لم يعد يستطيع البقاء في المكان نفسه، أكان يخشى أن أخبره عن تلك اللمسات التي شعرت بها على جسدي؟ تلك التي اجتازت الزمن ووصلت لي بكل تفاصيلها وأنا هنا في غرفة طفلي.

وبمجرد أن أغلق الباب خلفه، انتبهت لذلك الألم الذي انتشر بجسدي، انتفض قلبي، ترددت وأنا أرفع كنزتي وأنظر إلى بطني التي امتلأت خدوش، أسرعت بمغادرة الغرفة بعدما ألقيت نظرة على سيف، دخلت غرفتي وأغلقت الباب، خلعت ملابسي ووقفت أمام المرآة لأتأكد أنها لم تكن

مجرد أوهام، كدمات وآثار أظافر وسمت على جسدي بوشم تاريخه ثورة لم أحضرها!

لم يكن لدي الجرأة أن أخبر صلاح بما أعانيه، تلك الليلة قضيتها متشبثة بأحضانه، أستشعر أن هناك عيونًا تراقبني، وأنفاسًا تتسلل إلى الغرفة، تتعمد الاقتراب مني، جسدي يقاوم شيئًا ما يحاول أن يجرني بعيدًا عن زوجي، لكنني أزداد إصرارًا على البقاء قريبة منه، كلما شعر بخوفي ضمي إليه أكثر، كما لو كان يحاول أن يتحدى الظلال التي تحيط بنا دون أن يعلم.

حتى أشرقت الشمس بنور باريها تدعو لأحداث جديدة، خرج صلاح بهدوء كعادته، يعلم أنني لم أحصل على الراحة الكافية فلم يحاول إيقاظي.

بعد أن غادر المنزل، سحبت نفسي من الفراش بتثاقل، جسدي منهك وكأنني قد خضت سباقًا ليلًا مع المجهول، تحركت باتجاه دورة المياه؛ لأبحث عن دفء الماء الذي ربما يعيد إليّ بعض الراحة، لكن ما إن بدأت في خلع ملابسي، حتى تجمدت يداي بصدمة، لا وجود لتلك الآثار التي وسمت جسدي بالأمس، وقفت أمام المرآة محاولة استيعاب ما يحدث، أحدق في جلدي أحاول أن أستعيد شهادته على ما حدث، أبحث عما يثبت أني لم أجنّ، ولكن الليل محى كل الأدلة وترك الاتهام.

كانت حقيقة، كنت أراها، أشعر بها، منذ سنوات وأنا أعيش في عالم من المخاوف، ظننت أنني قد تجاوزت ذلك بعد زواجي، أكدت لي زوجة عمي في الماضي أنها مجرد أوهام طفل فقد عائلته، ولكنني كبرت وأصبح لديّ أسرة،

زوج وابن يمنحاني الأمان والاستقرار، وظللت امرأة لا تعرف إن كانت تحيا حاضرها، أم تعيش ما مات!

.....

جلست في سكون الليل، أتابع نبض الهواء الذي يتسلل من بين الطرقات، حتى يصل إليّ أمام الشرفة، أراقب الضوء المنعكس من النوافذ البعيدة، أراه يشبه الأمنيات ومن خلفه أسرار البيوت وعبق الحكايا، السيارات تمرّ بين الحين والآخر ترفض النوم، والعابرين في ملكوت الله فارين من حر الجدران، وربما شتتهم لهيب الشوق.

لم أشعر به حين اقترب، إلا عندما وضع كفَّه فوق كتفي بلطف، كان يحمل كوبين أحدهما لي كعادته دون أن يسألني عمّا أحب، وضعهما على الطاولة؛ فتراقصت فوقها الأبخرة وهي تعانق الهواء.

جلس بجواري، لم يتكلم، فقط أراح ظهره على المقعد، وأخذ يرتشف القهوة ببطء، ينتظر معي نسمات الفجر، همست أقطع من الصمت صمت: أتظن أن هناك مدينة لا تنام كقاهرة المعز؟

ابتسم، نظر إليّ بطرف عينه وقال: إن كنتِ فيها، فلا أحد ينام.

ضحكت بخفة، وضعت رأسي على كتفه؛ فتقاربنا أكثر مما ينبغي في لحظة خُلقت لتكون كل اللحظات.

قال: أحيانًا أتمنى أن أوقف الزمن، لا أحد يطرق الباب، لا ذكريات مؤلمة، لا صراخ، لا أشباح، فقط أنا وأنتِ وسكون الليل.

- صلاح...

- نعم؟

-شكرًا لأنك ما زلت معي.

رفع وجهي إليه، نظر في عينيّ طويلًا يفتّش عن شيء ضاع ولم يعد، ثم قال: أنا لا أستطيع أن أكون في مكان آخر، حتى وإن مت، تأكدي أني معك، ثقي في ذلك، أنا داخلك، في تكوينك ياسمين.

مددتُ يدي أبحث عن يده، أمسكها بقوة، شعرتُ بحرارة أصابعه تتسلل إلى جلدي، كأنها تطمئنني أنني ما زلت أعيش، قال وهو يقبّل يدي: تعبتِ كثيرًا، أعرف، لكن هل تعلمين؟ الحب أحيانًا لا يشفي، لكنه يمسك بيدك إلى أن تنتهي العاصفة، يدلكِ على الطريق حتى وإن كنتِ مغمضة العينين، لن تضلي معه أبدًا.

نظرت إليه طويلًا، لا أجد كلام يعبر عما تحمله له روحي من امتنان، فلم يخلق الله للقلب لسان، حتى قلت: ابقَ، ولو كنتَ صمتي.

- أنا لا أحتاج كلام ياسمين، أنتِ كلماتي، كتبتها بيدي، أسمعها وأحتفظ بكل تفاصيلها في كتابٍ بقلبي... لا تبحثي أبدًا عن شيء مفقود في وجودي حتى وإن كانت الكلمات، لذلك... سأبقى.

وبقي...

البوح التاسع

مَن أكل البيتزا؟!

مضت الأيام وأنا أخشى فتح الهاتف، أخاف أن أجد فيه شيئًا ينتظر ضعفي ليلتهمني، لم تظهر لي منذ فترة، هل كانت قد ضمنت وصولي للحقيقة التي أبحث عنها؟

لكنها اليوم عادت من جديد، كنت أعلم أنها ستعود... دائمًا تعود حين أبدأ في النسيان، تعود كلما تقربت من زوجي واستقامت حياتي وحاولت الاستمتاع بأيامي، ظننت أنها لن تضرّني أبدًا، ولكن ما حدث اليوم جعلني أخشاها، أيقنت أنها أصبحت خطرًا عليّ، تعاقبني على نسياني وخيانتي لها بالحياة.

كنتُ في المطبخ أعدّ الطعام وقد أوشك صلاح على العودة، يدير محل والدي للأدوات الكهربائية منذ فترة طويلة، بعد وفاة أبي تولّى عمي إدارته، ولكن لانشغاله حينها بوظيفته كموجّه في التربية والتعليم، كان صلاح هو الوحيد المناسب لهذه المهمة، وها هو الآن متفرّغ له تمامًا.

أجيد الطهي بفضل زوجة عمي، علمتني وسما كل أسرار المطبخ التي ورثتها عن جداتها جيلًا بعد جيل، لا تسمح فريدة بالأطعمة المصنّعة ولا الأكلات السريعة داخل المنزل أبدًا كأي أم عربية أصيلة، وها أنا أحاول أن يعتاد طفلي على ما اعتدنا عليه، حتى وإن غلبتنا الشهية أحيانًا

واحتجنا إلى تناول الوجبات الجاهزة، ولكن في أضيق الحدود، لأكون نموذج مثالي كجداتي، أحافظ على التقاليد والأصالة حتى في الطعام.

أعشق البيتزا، رغم كل تحذيرات فريدة، كم من مرة اصطحبتني ورد لأتناولها معها دون علم زوجة عمي!

كانت شهية لدرجة لا تقاوم، وكأنها اكتسبت لذتها من كونها ممنوعة، لا من مذاقها المختلف، فِعل الممنوع ماتع أحيانًا، حتى وإن لم يكن محرَّمًا؛ فالممنوع مرغوب، والمرغوب لذيذ، خاصّةً مع صلصة الطماطم الحلوة وأصابع البطاطس المقلية.

وقفتُ أصنع معجنات البيتزا بيديّ، ملمس العجين بين أصابعي يشبه قلبي، هشًّا، لينًا، ليس لديه حرية الاختيار، لكنه يحتمل التخمير والانتظار، أما قلبي؟ يكره الانتظار، سريع الحب ولكنه لا يعرف الكره.

حين أضغط على العجين بأناملي، أفرغ ما في داخلي من توتر، يجعلني أهدأ، أبطأ، أتنفس بعمق، يتجاوب معي، يلين تحت راحتيّ، يخضع لأوامري؛ فيشعرني بسلطتي وهيمنتي عليه، ربما لذلك كانت الجدات أهدأ، مزاجهن أكثر اتزانًا، دمائهن نشطة دائمًا، دون حاجة لكرة مطاطية تحكم قبضتها اليد، تُعتصر تحت أصابع مرهقة، ويخبروننا أنها مفيدة للتخلص من التوتر، حتى لو كانت نهايتها مخلفات بلاستيكية تضر البيئة!

أنهيت تشكيل الدوائر، وضعت كل الإضافات، صلصة البيتزا، خضروات، حلقات من الزيتون، شرائح دجاج مقرمشة، وكثيرًا، كثيرًا جدًا من الجبن

المطاطي الذي سيمتزج بنعومة مع بقية النكهات؛ فيكون انصهار شهي يذوب في الفم.

توجهتُ بسعادة إلى الفرن، فخورةً بما صنعت يداي، ولكن بمجرد أن فتحته، اندفع لهبٌ حارق في وجهي.

صرخت... صرخت بكل طاقتي، بكل ما فيّ من فزع وألم؛ فزاد اللهب، ربما صرختي ساعدت أن يشتعل المطبخ قبل أن تحرقني النيران...

فقط كي لا آكل البيتزا!

ألقيتُ الصينية على الأرض دون وعي، تراجعتُ إلى الوراء، اللهب يطاردني، يلتف حولي في دوائر منتظمة، يحاول الانقضاض عليّ ليحرقني، كنت واثقة أني سأموت محترقة ذات يوم، شعور يراوضني منذ زمن وها قد تأكد اليوم.

أخفيت وجهي بيديّ، أصرخ؛ فيبتعد، ثم يعود مجددًا، يهجم عليّ بنهم طائر جارحٌ مصمم على اصطياد فريسته.

لمحتُها... تقف أمام الباب، تشاهد ما يحدث بتلذذ، أمرت بإيذائي ولن تتراجع، توسلتُ إليها أن ترحمني، أن تُبعد عني هذا الجحيم، لكنها لم تستجب؛ بل أمسكت شريحة بيتزا -لا أدري كيف وصلت إلى يدها- وأخذت تلتهمها بنهم مستفز! وكأن صراخي يبهجها وألمي يفتح شهيتها!

وفي خضم صرخاتي، وجدت يدًا تجذب كفيّ لتبعدهما عن وجهي، قاومتها، كانت مُصمّمة على تعرية ملامحي أمام النار، عجزت يداي عن حراسة جفوني، لكن عيناي أبتا الاستسلام، أغلقتهما خوفًا من احتراقهما ورؤية

الجحيم من حولي، أحرك رأسي رفضًا يمينًا ويسارًا، وكأن حركتي ستغير مصيري المحتوم، لا مفر من الحريق، إذًا لا داعٍ لرؤيته وهو يلتهمني.

التقطت أُذناي صوت صلاح، شعرتُ بنفسي بين ذراعيه، لا أدري كيف ولا متى اقترب مني وضمني، يحاول تهدئتي، فتحتُ عينيّ كمن يخرج من غيبوبة.

كل شيء يبدو طبيعيًا... طبيعيًا أكثر مما ينبغي!

قلت بذعر: اشتعل بي الفرن! طاردتني النيران، أرادت أن تحرقني! لن تتركني... ستحرقني مثلما احترقت... أكلَت البيتزا.

- اهدئي ياسمين، أنتِ بخير... أنتِ بخير.

- لا، لست بخير! لقد شوهت وجهي النار! خرج اللهب من الفرن يطاردني!

وضعتُ يديّ على وجهي أتحسّسه؛ فقال بصوت هادئ مطمئن: وجهكِ سليم... لا يوجد حروق، ولا نيران.

لم يكن مندهشًا، ربما اعتاد على لا منطقية أفعالي، لكنني رأيت في عينيه حزنًا ورفضًا، هل ما عاد يحتمل ما أفعل بنفسي... وبه؟

- الفرن مغلق، ياسمين.

حدّقت في الموقد طويلًا، لا أصدق، النار كانت حلمًا...! أو لعله كابوسًا لا يريد مغادرة رأسي، لم أعد أثق بما أراه، ولا بما أشعر به، كل شيء كان طبيعيًا... طبيعيًا أكثر من اللازم.

البيتزا ناضجة!

موضوعة على المنضدة في سلام، تتصاعد منها أبخرة الحرارة وروائح العجين المخبوز بالجبن والخضروات، كأن شيئًا لم يكن... وكأن الجنون هو الحقيقة الوحيدة.

ولكن...

ينقصها شريحة!

- صلاح، من أكل البيتزا؟!

سكت...

فقط مزيج من الحزن، القلق والحب الضعيف، ثم حرك رأسه بلا أعرف، أو ربما لا فائدة.

- صلاح، لست أنا من أكلها.

- أغمض عينيه يؤيد كلماتي... أو يرفضها!

- هل تصدقني؟ كان هناك لهب، ورد عادت من جديد، أكلت البيتزا... صدقني أرجوك.

مرر أنامله على وجنتيّ، ثم حضن وجهي براحتيه، يبعث لعقلي إشارات بالأمان، ثم قال بابتسامة لاحت على ملامحه تقاوم القلق: رأيتكِ تصرخين، تهربين من شيء لا أعرفه، تتوسلين لشخص لا وجود له أمام عينيّ، رأيت اللهب في عينيكِ ياسمين... وهذا يكفي لأصدقكِ.

بكيت، شهقاتي تبحث عن هواء يبرد نيران روحي، قلت وأنا أشعر بالاختناق: لماذا تحتملني؟ ماذا أعطيك لتقابلني بكل هذا الحب؟

ضمني إلى صدره، سمعت دقات قلبه تنطق باسمي وكأنها ترتل ترنيمة نجاة، وقال بهدوء: لأن وجودك في حياتي ليس به احتمال، إنه يقين، إيماني بكِ لا يخضع لمنطق، وأبعد من حدود الخيال، أنا معك ياسمين حتى ولو تغير الزمان والمكان لن أتركِ أبدًا.

ودون أن ينطق بكلمة أخرى أو يعطني فرصة للرد ومحاولة إثبات حقيقة ما رأيت، قبّل شفتيّ برفق يبث بهما إكثير الحياة، وحملني بين ذراعيه ليغادر المطبخ، كمنقذ شجاع خرج لتوه من بين النيران، لم يأبه الموت، فقط دوره أن يحيا غيره بسلام.

البوح العاشر

هل تؤمن بالأرواح؟

لم تكن زيارتي الأولى للطبيب، زيارات متفرقة حدثت على فترات، كان يدفعني إليها صلاح كلما ضاق صدره بحالي، ونفد صبره أمام ما يعتقده أوهام، لا يصدق أن ما أراه حقيقة، أنني أعيش شيئًا بكل تفاصيله رغم أنني لم أكن فيه أصلًا.

متأكدة أن الطبيب لا يصدقني، عينيه تقولان كل شيء، يظنني مريضة، وأن اضطرابًا ما يدفعني لرؤية شقيقتي!

ومع ذلك، ذهبتُ هذه المرة أيضًا، لا اقتناعًا؛ بل حتى يطمئن الجميع.

بدأت أشعر أن صلاح يخاف مني... أجل، يخشى على سيف أن يبقى إلى جانبي، صار يتركه كثيرًا مع والدته، خاصة حين يضطر للغياب عن البيت طويلًا.

ربما لم ينتبه أنها فرصتي في التحرك بحرية، للبحث عن أي شيء يُرضي عقلي ويريح قلبي.

سأتظاهر بأنني استسلمت، وأني بدأت أصدق أنه مجرد وهم، وسأخوض علاجًا لا أؤمن به، فقط ليطمئن الجميع، أما أنا... فلن أتوقف.

جلست أمام الطبيب بارتباك، أخشى أن يوبّخني على عدم التزامي في الجلسات، بدأ كعادته يدون شيئًا كالعادة لا أعرفه، حتى قبل أن أتحدث يبدأ في الكتابة! كان صوته رتيبًا وهو ينظر إليّ ويسألني من فوق عدسات نظارته: هل أتيت هذه المرة دون إرادتك أيضًا؟

ابتلعت ريقي، حاولت إخفاء توتر أصابعي عن عينيه اللاتان تتفحصان حركاتي، وقلت: ليس كذلك، ربما دون اقتناع، ولكن دائمًا بإرادتي.

ابتسم لصراحتي التي يعتادها، وقال: أخبريني ماذا تشعرين تجاه صلاح؟

قلت بسكون غريب يجتاحني أمامه، وكأنني أنتظر منه إشارة البدء لأُفرغ ما بداخلي دون خجل أو ارتباك: زوجي... أحيانًا أشعر أنه أخي، ربما صديقي، ولكنه دائمًا جواري، يحرسني كظلي، لا يعطيني فرصة للخطأ، وإن حدث يصححه بكل صبر.

- هل تشعرين بالحب تجاهه؟ ولا أقصد المشاعر المعتادة من تعود ومودة بين الزوجين، أعلم أن حياتكما مستقرة.

حاولت التحدث بصدق بعيدًا عن رفض فكرة البوح لشخص غريب عني بما هو يعتمل داخلي بأدق أسرار حياتي، وقلت: كثيرًا ما أجد نفسي أتأمله، أختلس النظرات حتى لا يشعر بي، وكأنه ليس زوجي الذي اعتدت عليه قريبًا مني لأقصى حد، صلاح رجل يملأ العين والروح، شاب مثالي الهيئة والجسد، عيناه معبرتان لأقصى حد، لدرجة أني كثيرًا ما أخشى النظر إليهما، ورغم سوادهما المظلم، إلا أن بهما لمعة جاذبية غريبة تجعلني أعجز

عن مقاومة النظر إليهما، أرى بداخلهما حب لا ينتهي، دائمًا هو مشتاق، ملهوف.

ظهرت عليه نصف ابتسامها أخفاها وهو يقول: كيف ترين تعامله معك كزوجة؟

بحثت داخلي عن صلاح ومعه الإجابة وقلت: يهتم بي... يخاف عليّ... لكن ومع كل ذلك، هناك شيء بعينيه يشبه القلق، قلق يصل لي أحيانًا أنه مني وليس عليّ!

- كيف تشعرين بالحياة من حولك؟

- أشعر أنني أراقبها من خلف زجاجٍ معتم... أراها تمضي، وأنا لا أتحرك.

رفع عينه عن الورقة للحظة، وسألني: ومتى بدأ هذا الشعور؟

- حين بدأت ورد في الظهور، يوم ذكراها، مع حلول يناير، حيث الاحتفال بالثورة؛ فأحتفل أنا بوفاتها، لم أكن أربط التاريخ في البداية ولكن بعد حديثي مع عمي فهمت السبب.

- وهل يزعجك ظهورها؟

- بالعكس، اعتدت وجودها، كنت أشتاق إليها، ولكن... دائمًا تنظر إليّ ولا تتحدث.

- وهل يزعجك صمتها؟

- يُخيفني... أرهب من نظراتها، لا أدري ماذا تريد ولماذا تدقق النظر فيّ؟! لماذا تختفي ثم تعود؟! ولمَ هي صامتة دائمًا.

- هل جرّبتِ أن تتحدثي معها؟

- أجل، كثيرًا، ولكنها لا تتجاوب معي، فقط تنظر إليّ بثبات دون أن ترمش، عيناها واسعتان، جاحظتان وكأنها مرآة تعكس ذنبي.

سكت الطبيب برهة، وأخذ يدوّن شيئًا جديدًا، ثم رفع رأسه نحوي، ولكن نظرته هذه المرة كانت مختلفة... كأنه يتحاشى شيئًا ما، أو يتحفّظ عن قول شيء، رأيت سبّابته تضغط لا شعوريًا على قلمه، يكتم ترددًا، أردت أن أقول شيئًا، ولم أفعل، ثم نطقت به فجأة: هل تؤمن بالأرواح، دكتور بلال؟

لم يُجب، فقط ظلّ ينظر إليّ، وبدا أن الجلسة انتهت دون أن يُعلن ذلك رسميًا.

.....

غادرت الغرفة بعدما وعدته بالانتظام في تناول العلاج، بعض المهدئات والمنوّمات... لن تضر، ربما تحميني من كوابيس الليل، أو تجعلني أستقبل ظهورها في وضح النهار بلا مبالاة، حتى تيأس من محاولات تدمير حياتي.

اتصلت بصلاح لأخبره أن الجلسة انتهت، كان ينتظرني في السيارة أسفل المبنى، ركبت المصعد، لا أخشى الأماكن المغلقة، ولا الضيقة... لكن هذه المرة شعرت باختناق مباغت، لا تفسير له سوى... وجودها.

رأيتها خلفي في المرآة، كان انعكاسها واضحًا... واقفة بثبات، كأنها جزء من الجدار.

التفتُّ فجأة، حان الوقت لإجبارها على الكلام، لن أقبل صمتها بعد الآن، وإن صمتت؛ فلن أهتم بوجودها إلى الأبد.

نظرتُ لها بتحدٍ، وصحتُ: ماذا تريدين مني؟! لماذا تصرين على إخافتي؟! لم تفعلي شيئًا بعد الآن، ولن تستطيعي إيذائي.

ابتسمت، ابتسامة ساخرة مستفزة، ثم قالت بصوتٍ مرعب ليس صوت أختي الذي أعرفه، قادمًا من مسافة بعيدة... من قاع الجحيم: غبية... ستظلين غبية، يضحك عليكِ الجميع، يخدعونك، وأنتِ تعلمين أنهم يُخفون عنكِ الكثير، ستأخذين علاجًا يذهب عقلك، يعزلك عن العالم، تتوهين في راحة وهمية وسعادة مبهمة.

اهتز قلبي لرنين صوتها، لم يكن بشريًا، كان مشوّهًا... كأن شيئًا آخر يتكلم على لسانها.

ابتلعت ريقي، تماسكت.

المصعد يهبط بسرعة، كأننا نخترق الأرض.

رفعت يدي، سألمسها؛ فلتؤذني؛ فلتنتهِ هذه اللعبة إلى الأبد، وضعت كفي على وجهها، كان باردًا... باردًا أكثر من الموت.

جحظت عيناها، لم تتوقع جرأتي، رفعت يدها فجأة، قبضت على معصمي بقوة لا تشبهها، قبضتها كانت مثل حديد جليدي، يتسلّل بردها إلى جلدي، ثم عظمي، ثم إلى أعماقي، شعرت أن جسدي يتجمد... أن الزمن توقف.

ثم... فعلها المصعد.

صوت الارتطام هزّ روحي، لا الجدران فقط.

لكني لم أستطع الالتفات.

لم أستطع الحركة.

كنت جامدة... كميت صلبوه واقفًا في ميدان.

صوت بعيد يناديني... يطلب مني أن أتحرك، ينتشلني من الأعماق: ياسمين! ياسمين!

رأيت ضوءًا... ويدًا تمتد، سُحبت خارج المصعد.

صلاح، ملامحه قلق، وصوته يرتجف: ياسمين، ماذا بك؟! لماذا تأخرتِ في المصعد؟!

هل سأستطيع الرد؟

هل لساني ما زال يخصني؟

قلت بصوت أقرب للهمس: لا شيء... توقف عند أحد الأدوار فخشيت أن يكون عطًا سيأخذ الكثير من الوقت.

غادرت معه دون كلمة أخرى، لكني أعلم... أن تلك لم تكن النهاية.

البوح الحادي عشر

حين يخون الأمان

روحها لم تعد تطاردني، ولكن خيالها يأبى مغادرة ذكرياتي، رضيت بها في كل حالاتها، يكفي أن يكون لها ظل ممدود في أيامي، اختفت، وكأنها تعاقبني على جرأتي في الاقتراب منها ولمسها.

لم أعد أتحدث أمام صلاح عنها، أخذت عهدًا على نفسي ألا أخبره ما أراه ولا ما أفكر فيه، ولكني لم أتخلَ عن وعدي لنفسي ولها، سأكمل ما بدأت، وسأعرف الحقيقة كاملة.

أتهرب من أخذ المهدئات بعدما أدركت أنها تعزلني عن العالم، أحاول منذ فترة إيجاد فرصة مناسبة لفتح الحقيبة وتفحص تفاصيل أوراقها وهاتفها، ولكن دائمًا ما يراودني احساس بتتبع نظرات صلاح لي ومطاردتي داخل المنزل وخارجه.

بالأمس عندما أمسكت الهاتف وقبل أن أفكر في أن ألحقه بمزود الطاقة، دخل صلاح الغرفة وأنا أمام الخزانة؛ فوضعت الهاتف على عجالة بالحقيبة، التفت إليه بابتسامة أحاول أن أخفي بها توتري، رميت بنفسي على صدره؛ فراح يلبي نداء القلب ويطمئنه أنه بالقرب لن يبتعد أبدًا.

في صباح اليوم التالي فتحتُ الخزانة، حيث تقبع بداخلها الحقيبة التي أخفيتُ فيها متعلّقات ورد، لكني لم أجد أغراضها القديمة كما تركتُها داخلها!

نظرتُ حولي، بعثرتُ الأرفف، لعلّ ما بها قد انسكب دون قصد... لكن لا شيء.

تحرّكتُ في الغرفة، أبحث، أتتبّع، تلك الأغراض كانت في هذه الحقيبة... أنا واثقة.

العطر! أجل، رائحته تعبق في المكان، أحدهم سكبه دون قصد، واختلس من أريجها عن سبق إصرار وترصد دون وجه حق، لقد سرق ذكرياتها والعطر في غفلة مني.

أخذتُ أفتّش في حقائبي، أتتبّع الرائحة، حتى وجدتها: الأوراق، الوشاح والمشط، كانت في حقيبة أخرى، لم أحملها في ذلك اليوم، ولا حتى منذ فترة طويلة، أغمضتُ عينيّ، أحاول التذكّر... ربما وضعتُها هناك ونسيت عندما دخل صلاح على غفلة.

لا لم أفعل، ولكن... أين الهاتف؟

جُنّ جنوني، الظنون تتلاعب برأسي، يستحيل أن تكون روحها هي من أرادت أن تضلّلني، ربما أخطأت... ربما وضعت الهاتف في مكان آخر لأخفيه بسرعة، لا، لا، أنا واثقة، هذا ليس من فعل يدي.

لحظات... وتذكّرت، ذلك اليوم الذي غادرتُ فيه منزل عمّي، ومعي أغراضها القديمة ككنز عثرتُ عليه، وبعد أن قضيتُ النهار في الحديقة دون أن أشعر، وجدني صلاح، كنتُ حينها أمسك بزجاجة عطرها في يد، وبالوشاح الأبيض في الأخرى، لا بد أنه لاحظ، لا بد أن أنفه التقط الرائحة... عرف الأغراض، عبث بالحقيبة بعدما علم بالأمس أني أخفي بها كل شيء، وهو من سرق الهاتف، دائمًا يسبقني بخطوة وكأنه يقرأ أفكاري.

ولكن... لماذا سعى لإخفائه عني؟ لماذا لم يُخفِ شيئًا من باقي الأغراض؟ ما الذي في الهاتف يسعى لعدم وصولي إليه؟

فتشت كل شيء بالغرفة، أغراضه، خزانته، ملابسه، لا وجود للهاتف، تحركت في المنزل دون هدى، أبحث عن مخرج في رأسي يدلني إلى طريق أحاول السير فيه بلا مرشد، حتى وجدته يقف أمامي، لا أعرف كم من الوقت مر ولا متى عاد، تختلط ملامحه بين الحيرة والتوقع، قلت بثورة لا تحتمل الانتظار: لماذا أخذت الهاتف؟

ابتسم بهدوء قائلًا دون دفاع: أي هاتف؟

- صلاح، لا أحد بالمنزل غيرنا، أغراضها كانت في الحقيبة السوداء، وجدتها في الرمادية ولكن دون الهاتف.

لم يرد، لم ينفِ، ظل يدقق النظر بي، تقدمت منه خطوة وصحت به: الهاتف كان معهم، أنا لم أضعه في أي مكان آخر، لماذا تحاول طمس الحقيقة واخفائها عني؟

تنفس بعمق، مرر أصابعه بين خصلات شعره بإجهاد، يعطي نفسه بعض الوقت للتفكير في رد مقنع للخروج من المأزق، ثم قال بهدوء وهو يتحرك باتجاه الغرفة، ربما ليبدل ثيابه بعد يوم عمل طويل: الهاتف في الشاحن على طاولة المطبخ ياسمين، لو كنت اهتممتِ بإعداد الطعام اليوم بدلًا من طلبه جاهزًا لوجدته بكل سهولة.

أغمضت عينيّ أهرب من رؤيته رغم أنه ابتعد ليعفيني من الحرج، تحركت باتجاه المطبخ أتمنى ألا أجده وأعود لألصق به التهمة مرة أخرى؛ فتعود كرامتي أمام نفسي وأمامه، ولكني وجدته قابعًا ينتظرني كما أمره صلاح، سرعان ما تناسيت أمر اتهامي، حملته بلهفة، رغم أني لم يكن لدي الجرأة لفتحه، كأنها تسكنه، تنتظرني خلف الشاشة لتخرج إليّ فور تشغيله.

وبعد وقت ليس بالقليل، حانت اللحظة التي سأبدأ منها، فتحت الهاتف، أنارت الشاشة، ابتلعت ريقي، شيء ما يتحرك بداخل صدري، شيء كان مستكين وقرر فجأة الثورة على هدوئي، شيء ليس له علاقة بنبضات قلبي وحركات رئتاي.

ضوء الشاشة تسلل إلى ذاكرتي، أعادني إلى زمن كنت فيه معها؛ فنبشت في الماضي بأطراف أصابعي المرتجفة، قلبت في الأسماء علِّي أجد اسمًا مميزًا أو أتذكر أحدهم، لم أجد إلا نوارة... ومضة ضوء وسط عتمة الأسماء، تبرق في ذاكرة صدئة، تُحرك ماءً راكدًا من الحنين.

صديقة ورد منذ الثانوية، نعم... هي، كانا سويًا في كلية الحقوق، رفيقتها المقربة في كل شيء، مؤكد صاحبتها إلى الميدان، إذًا... هي أول خيط في هذه المتاهة؛ فإذا كانت ورد لغزًا؛ فنوارة مفتاحه.

نقلت الرقم على هاتفي، وانتظرت في اليوم التالي بعدما تأكدت من مغادرة صلاح المنزل، ورحت أقاوم رجفة أصابعي وأنا أضغط على الاتصال، بالطبع ستتذكرني، مؤكد أصبحت زوجة وأمًا... ولكن، هل لا تزال تحتفظ بنفس الرقم؟ ماذا لو كان مجرد تشابه أسماء وهناك نوارة أخرى؟ ماذا لو كانت خانتني الذاكرة ولم تكن المقربة إليها؟

- أستاذة نوارة؟

- من معي؟

ارتبكت، اهتز صوتي، فكرت أن أغلق الخط، صمت لحظات، ثم قلت بتردد: أنا... أريد مقابلتك بخصوص صديقة قديمة لكِ، فهل تسمحين لي؟

جاء صوتها هادئًا مطمئنًا، وكأنها كانت تنتظر هذه المكالمة منذ زمن، تحدثت بحنو مشتاق، وانتظار من لم ينسَ وقالت بتساؤل: ظهر أمامي الاسم... ياسمين حسني؟!

- أجل، أنا هي.

صمتت لحظات شككتُ أن الاتصال قد قطع، حتى جاء صوتها بتردد: أخت ورد؟!

ابتسمت، أغمضت عينيّ، خطفني الحنين عندما تذكرت ملامحها وهي تحدثني.

- أجل، نوارة.

- أنتظرك في المكتب، سأرسل لكِ الموقع فورًا.

لم أتخيل أن يأخذني الشوق إليها بهذا الشكل، تذكّرتها بكل تفاصيلها، وكأنها كانت هاربة في ركن ما من ذاكرتي، وقررتْ العودة فور احتياجي لها، كيف غابت عني كل تلك الفترة وهي التي لم تفارق ورد لحظة طوال حياتها.

أغلقت الخط وأنا في حالة من السعادة لم أشعر بها منذ فترة، مرّ عطر ورد أمام أنفي... ليست المرة الأولى، ولكن هذه المرة استدرتُ أبحث عنها وكأنها تقف خلفي.

كنت قد أبعدت الزجاجة عن الغرفة، أغلقتها بإحكام، وضعتها داخل علبة محكمة الغلق، وألقيت بها فوق خزانة المطبخ، بعيدًا عن أي احتمال لهروب عطرها.

لم يعد لدي شكّ، ورد ما زالت موجودة، تختبئ في تفاصيلها، تحتفظ بعطرها، حتى وإن كانت روحًا لا تُرى؛ فظل هنا عطر أنثى رفضت أن تُنسى.

البوح الثاني عشر

صدى صوت وصورة

حملتُ سيف وأغراضه بعدما قررت الذهاب للقاء نوارة، توجهتُ إلى بيت عمي، لكنني تذكرت في الطريق أنني لم أخبر صلاح بمغادرتي المنزل، خشيتُ أن يثور كعادته حين أفعل شيئًا دون علمه؛ فتوجهت إليه في مكان عمله.

المعرض يتوسط الطريق، كأنه حاجزٌ لا يمكن تجاوزه، لم أدخل ذلك المكان منذ وفاة والدي، لا أدري ما الذي دفعني، الشوق أم قدماي اللتان خانتا عزيمتي؟

بمجرد أن عبرت عتبة المحل، بدأ الندم يتسلل داخلي كلص خفي، كان يمكنني ببساطة أن أتصل به، لكنني أتيت بنفسي وبكامل إرادتي.

حين رآني، تجمّد لحظة، ثم اندفع نحوي بلهفة وقلق قائلًا: ماذا حدث؟ هل سيف بخير؟ أنتِ بخير؟ ماذا هناك؟

كنت أفتّش بعيني عن أيّ تفاصيل جديدة لا أعرفها، أي أثر يدل على تغيّر الزمن، لكن لا شيء تغيّر، مكتب أبي ما زال شامخًا في مكانه، يرفض الرحيل، ربما تغيّر نوع الأجهزة المعروضة في المعرض بحكم التطور، لكن روح المكان ظلت معلّقة في سقف الذاكرة، رائحة الأجهزة الجديدة بتغليفها

تختلط بها رائحة أخشاب الأثاث القديم، مكتب، كراسي وأبواب، لم يحاول تجديدها أو تغير ألوانها.

قلت ببرودٍ وتحدٍ لا أعرف سببه: كنت في طريقي إلى منزل عمي؛ فقررت المرور عليك بدلاً من الاتصال، هل لديك اعتراض على زيارتي؟

أخذ سيف من بين يديّ بهدوء، تحرك بارتباك وجلس به على المكتب، ناولَه علبة الأقلام ليلعب بها، يجذبه لتفاصيل المكتب؛ فلا يشعر بالملل سريعًا، ثم نظر إليّ قائلاً: من الجميل أن يتعرّف على مكان عمل والده... ويجلس على مكتب جده، حتى يستعد لحمل الأمانة من الآن.

ربما كانت لهجتي قاسية، لكن شيئًا ما اهتز داخلي لحظة دخولي، شيء جعلني أرى صلاح لا كزوج؛ بل كغاصبٍ لعرشٍ لم يكن يومًا له، شعرت لأول مرة بغيرة غريبة منه، حتى وإن كان ابن عمي، يحمل اسم العائلة، مسؤول عني، وزوجي!

قضيت بعض الوقت هناك، راقبتُ المكان بنظرة المحقّق، أبحث عن دليل لخيانة ذكراه، لكن صلاح لم يطمس شيئًا، اسم أبي ما زال محفورًا على لافتة المكتب "الحاج حسني الفلاح"، كما لو أن روحه لا تزال تراقب المكان.

وقعت عينيّ على إطار صغير مهمل في الزاوية، صورة أبي المبتسمة تحت طبقة غبارٍ خفيفة تضع بصمة الزمن، لاح على وجهي ابتسامة دون إرادة، ملامحه تناديني من خلف الزجاج، تحركت باتجاهها، مسحت التراب بكفي أتلمس روحة وأتأكد من وجوده؛ فتظهر صورته أوضح.

لم تطل زيارتي؛ فلا حاجة لي بالحديث مع زوجي خارج منزلنا أمام عماله وزبائنه، خرجت وأنا لا أعلم هل ما فعلته شجاعة أم رعونة؟ هل حديثي يحمل معنى بداخلي أردت التلميح به؟ أم مجرد صدمة رؤية المكان بعد زمن دون صاحبه؟ ولكن كسر حاجز الرهبة خطوة نحو التعافي، يجب اقتحام ذاكرةٍ لم تُغلق أبوابها بعد.

.....

تركتُ سيف مع جدّته كالمعتاد، ما الجديد وأنا دائمًا ألقي بحمل تربيته عليها؛ فتستقبله بقلب رحب، لم أخبر أحد أين سأذهب، ظن الجميع أني سأقضي بعض الوقت في الحديقة، تركتهم على اعتقادهم وتوجّهتُ إلى مكتب نوارة، كان في أحد أحياء القاهرة الهادئة التي تحتفظ بأسرارها، مكتوبًا على اللافتة اسمها واسم محامٍ آخر، سامح المصري، ربما زوجها أو زميل قديم لها ولورد بالجامعة... سأعرف بعد قليل.

دخلتُ المكتب بخطواتٍ تبدو ثابتة، لكنها مرتعشة، يتعثر قلبي كلما تقدمت خطوة، شممت عطرها القديم في الأرجاء، يستقبلني قبلهم، كيف أفلت من الزجاجة رغم كل احتياطاتي ووصل إلى هنا؟ ربما هناك من تستعمله مثلها في هذا المكان!

ارتددتُ بظهري حين رأيتُ ورد تجلس في انتظاري، للحظة، خُيِّل إليّ أنها كانت تتحدث، ابتسمتُ لها دون أن أشعر، يا الله، كم توحّشتُ رؤياها، لقد مضى كثير من الوقت لم تظهر لي فيه.

وقفت نوارة بمجرد رؤيتي، تحركتْ نحوي متجاوزةً مكتبها وورد، احتضنتني دون أيّ كلمة، أطالت احتضاني، اعتصرتني بين ذراعيها.

تسلّلت إليّ رهبةٌ قديمة، اشتعل في صدري حنينٌ غريب، انسكب بداخلي حزن ينتظر لحظةً كهذه لينفجر، كما لو كانت أعز صديقاتي التي لم أرها منذ زمن.

- تأخرتِ.

قلت بتأثر: كيف أتأخّر عن لقاءٍ سأعرف فيه ما لم أستطع عليه صبرًا؟

جذبتني نحو الأريكة الموجودة أمام المكتب وجلستْ بجواري، تنظر إلى وجهي بتأمّل، لم أُتحدث، حتى بدأت هي بالكلام، قائلةً بأسى تنطق الكلمات بصعوبة: مازلت تشبهينها، نسخةٌ منها... ياسمين.

أُدركُ قوة الشبه بيني وبين ورد، ولكني لأول مرة أرى وجهي في مرآة أحد، قلتُ وأنا أحاول أن أستعيد توازني: أعرف أنكِ كنتِ أقرب صديقاتها.

قالت بثقة: وما زلت.

دَوَّت الكلمة داخل عقلي، ونظرتُ إلى ورد التي ما زالت تجلس أمامها على المكتب؛ لأتأكد أنّها تعني ما تقول، ثم همست بشك: هل ترينها؟

- أجل، لم تغب عني يومًا.

نظرتُ مرةً أخرى باتجاهها، أنتظر نظرة تأكيد من أي منهما، وقلت: تشاهدينها حقًا، نوارة؟ هل تتحدث معكِ؟

- دائمًا... صدى صوتها في أذني.

كنت أتشبث بأي خيط يدلّ على أنني لست وحدي من يشعر بوجودها، أن الجنون لم يمسّني بعد، فقلت: أيَعني ذلك أنكِ ترينها؟

- أجل، أراها بقلبي، والآن أراها بكِ عادت للحياة.

أغمضتُ عينيّ وقد استوعبتُ إلى أيّ مدى أخذتني أوهامي، نوارة لم تنسها... لكن روحها لم تُقرر الظهور لها كما ظهرت لي، نوارة لا تراها... بل تراني أنا، ترى فيّ ظلّها، تقرأ وردًا في ملامحي، وتسمع صداها في صوتي.

أما أنا... فأراها بكلّ حضورها، بكلّ وجعها، بكلّ ما لم يُقال وما تخفي، ورد في الذاكرة، في الصوت، في العيون، عطر ورد في هواء كل شبر أسير فيه على هذه الأرض... تراها نوارة في كل نبضة مني ومنها وفي كل من يصرخ قلبه لتحيا...

لم تكن ورد هنا صدفة... كانت تمهد لطوفان من الأسرار، بعضها لم أكن مستعدة لسماعه، ولكني سمعته.

- انتظرتكِ كثيرًا.

- أتعرفين لماذا أنا هنا؟

- كنت أعلم أنكِ ستأتي يومًا ما لأخرج ما في صدري من وجع، منذ ذاك اليوم ويطاردني كابوسًا يرفض تركي، لا أستطيع مسامحة نفسي، أنا نجوت، بينما عجزت هي.

انهمرت دموعها، واضعةً كفيها على وجهها، وكأن ما حدث كان منذ ساعات وليس سنوات.

تمالكت نفسها، جففت دموعها، أخذت نفسًا عميقًا خرجت معه من بين ركام الألم، وقالت: كان كابوسًا لكل فتاة تواجدت هناك ذلك اليوم.

- أريد أن أعرف لماذا ذهبت إلى الميدان؟ لم تكن الوحيدة ولكنها فقط التي انتحرت، ماذا حدث لورد؟

- في مجتمعاتنا نادرًا ما تجدين الحقيقة كاملة، خاصة لو كان الأمر متعلقًا بفتاة، الكثيرات التزمن الصمت، قمعتهن شعارات السمعة واسم العائلة، أو دخلن في حالة نفسية لم تسمح لهن بالحديث.

- وأنت ستخبريني الحقيقة أليس كذلك؟

التقطت أنفاسها بصعوبة بعدما فرت من سباق مع الذكريات، تتحدث بحماسة يغلبها الخذلان، تناقد غريب بين ملامحها وكلامها، ساد الصمت، تردد الحزن في عينيها فصعب عليها الإفصاح عن كل ما يحمله صدرها مرة واحدة.

قلت محاولة تشجيعها على إخراج ما يجثم على أنفاسها: أسمعك.

- كانت آخر خيوط الأحلام...

البوح الثالث عشر

موسيقى بالزيت الحار

الذكرى الثانية للثورة.

نسير في مسيرات مفعمة بالحماس كعادتنا، دخلنا الميدان قرابة الساعة الثالثة عصرًا، كان مزدحمًا بعض الشيء، كبحر هادئ نقف على شاطئه، كنا مجموعة كبيرة نتحرك بصعوبة؛ فاتفقنا -أنا، ورد، مصطفى وسامح- على الانفصال عن البقية مؤقتًا لتسهيل حركتنا، على أن نلتقي عند إحدى اللافتات المعروفة.

قررنا الخروج من الميدان لتناول الغداء، ثم العودة بعد فترة، توجهنا إلى مطعم قريب من التحرير، كانت آخر مرة نتناول فيها الطعام بشهية، أحلامنا ذلك اليوم تراقصت فوق مسرح الحياة، لم نكن ندري أنها المسرحية الأخيرة لنا؛ فمنذ ذلك الحين، تنحّت الأحلام عن دور البطولة، انسحب الجمهور، وأُسدل الستار.

جلسنا في مطعم شعبي بعيدًا عن زيف المظاهر الفارغة، كان عبق الخبز الطازج يمتزج برائحة الشاي بالنعناع، الملاعق تطرق طرف الأكواب بإيقاعات صغيرة بدت وكأنها النغمة الوحيدة في عالم صاخب، نغمة مألوفة، فريدة، نسمعها كل يوم وأي وقت، بصمة وراثية فوق الأكواب تتناقلها الأجيال، تختلط في الأرجاء بصوت منير الذي يأتي من الجنوب عبر النيل،

محمل بالشجن، يغني للحب، للحياة، للأرض، ويتمرد على الوطن... لا لم يكن يغني، إنه يناجي، يعاتب، يتوسل بقلب عارٍ، يخبرها أنه لا يجد في حبها سببًا للاستمرار، ولا صدقًا يشفع الخذلان، ومع ذلك يرفع رأسه بفخر معترفًا بحبها رغم عنادها، حب من طرف واحد يرفض الانسحاب، أما الآخر يرفض إثبات الحب، داس منير على جرحٍ بداخل كل واحد فينا، زرع الشجن والحنين والتمرد، ثم اقتلعهم مع نهاية الأغنية وقدمهم هدية لبلاد طيبة القريبة البعيدة؛ فأعطيناها له بطيب خاطر.

ابتسمت ورد قائلة: لو أحب كل الرجال كالدفء في أغاني منير، لكان الحب أبسط، والثورة أسهل، إنه يرمم ما يفسده الآخرين بداخلنا دون أن نشعر.

ضحك الجميع أمام كلماتها، لم يجادلها أحد؛ فالكل أمام صوت النيل مخدر الروح، وجميعنا يعلم عشقها لصوت.

كانت ضحكتها لا تفارق وجنتيها، مبتسمة للحياة، نغبطها على بشاشتها الدائمة؛ فتخبرنا ضاحكة: أكره العبوس والقلق، لا أحد يعلم ما الذي تخبئه الأيام، فلمَ نتعجل الحزن ونعيش في الأوهام؟!

قالت يومها بثقة: سأكون يومًا ما سفيرة للنوايا الحسنة، أسافر في كل مكان، أطير من بلد إلى آخر.

أمسك مصطفى برغيفين خبز، خبط بكل منهما على الآخر كما لو كانا يتصافحا بعد غياب؛ فأخذا ختم صنع في مصر، وقال بثقة مشاكسًا، وقد

بدأ يلتهم الخبز بجدية: ومن أين لكِ بكل هذا اليقين؟ لن أتركك تتنقلين هنا وهناك!

ضحكتْ وقالت: إذًا تعالَ معي، وكن أنت أيضًا سفيرًا!

رد بعنادٍ طفولي: لن أترك حلمي في النيابة لأحقق حلمكِ بالطيران.

فقالت بتحدٍ: ولمَ أترك أنا حلمي؟

ابتسم لها بلين كأنه يخسر معركة ألفها وأحبها، وقال: الورد يحتاج إلى عناية واهتمام، وأنا جدير بذلك، يا أجمل وردة في البستان.

أرخت أهدابها بخجل؛ فلقد انتزع انتصارًا صغيرًا بلون وجنتيها.

توجهت نظراتهم نحوي، جاء دوري في الأحلام؛ فنثرتها أمامهم بأمان: سأفتح مكتبًا للمحاماة، وأمتلك سيارة زرقاء بلون السماء، وسأنجب ثلاثة أطفال، ولدين وفتاة واحدة؛ لتحظى وحدها بالدلال والاهتمام، سأشتري منزلًا به حديقة، لا يشترط أن تكون كبيرة، يكفي أن تفوح منها رائحة الأعشاب العطرية، وأن تتدلى فيها أرجوحة مريحة، أقضي عليها وقت فراغي وتأملاتي.

نظر إليّ سامح بصدمة وهو يمسك بقطعة خبز بين إصبعيه كأذن قطة مصرية رشيقة هربت من إحدى معابد طيبة، أغرقها في طبق الفول المنكَّه بالزيت الحار، وقال ممازحًا قبل أن يلتهمها: كفى... كفى... أين أنا من كل هذه الأحلام بالله عليكِ؟!

انفجر مصطفى وورد ضاحكين؛ فابتسمْتُ ونظرْتُ إليه بثقة وقلت: أنت من سيشتري البيت والسيارة، عزيزي.

ادعى أن اللقمة وقفت في حلقه، وهو يضع كفه على صدره وأغمض عينيه، ثم قال متهكمًا: هذا بالإضافة إلى المكتب! ألا تريدين أيضًا شاليهًا في الساحل؟

ضحكت وقلت بتواضع: لا... لا... ليس الآن... سأنتظر بعض الوقت حتى يستقر الأطفال في التعليم.

فرغت الأطباق كما فرغت صدورنا من الأمنيات، لم نكن نعلم أنه الغداء الأخير لنا مع الأحلام، غادرنا من المطعم ببهجة انطلاق الشباب، وقفت ورد على الباب للحظات، نظرت خلفها للمكان بتأمل، ثم نظرتْ بابتسامة إلى ثلاثتنا وكأنها تعلم أنها الابتسامة الأخيرة التي تجمعنا، طُويت الطاولة كما طُويت الذكريات بعد ذلك اليوم، وصرنا نتسكع فرادى على أرصفة الأيام، تنقصنا البهجة، و... ورد.

لا أريد مقاطعتها، مسحت دمعة فرت هاربة من محبسها قررت انتظار قريناتها بالخارج، كنت أتأمل روحها التي جلست تتفاعل مع الحكاية وكأنها لا تعرفها، لم تعد تنظر إليّ، كانت تحدق في كل تفاصيل نوارة وتعبيراتها، تنظر لها بامتنان ربما لو رأته الأخيرة لهدأت ثورة قلبها قليلًا، وأكملت:

- عدنا إلى الميدان، توجهنا إلى اللافتة حيث اتفقنا نحن والمجموعة، وما أن وصلنا بالقرب منهم؛ حتى فوجئتُ بورد تصرخ في أحدهم تطلب منه الابتعاد عنها.

جذبني سامح عكس هذا الاتجاه، وقال بقلق: هناك شيء غريب في هذا المكان، لابد أن نبتعد.

تحركتُ معه نحاول إيجاد ورد ومصطفى، ومن بعيد كانت بقية مجموعتنا تحاول الوصول إلينا ولكن دون فائدة، سمعتُ صرخة ورد؛ أحدهم يجذب حقيبتها، استطعت الوصول إليها والتمسك بالحقيبة معها، ولكن اختفت الحقيبة وسط التدافع.

الأجساد تتلامس دون أي حواجز، ورد وحدها داخل دائرة من الرجال، ومثلها تكونت حولي، يحاول كل من فيهم إبعادي عنها وابعادها عني، رأيت مصطفى وهو يجاهد من أجل الوصول إليها، وسامح بجواري يصنع من جسده درعًا لحمايتي، الكل حولي يتجاوز حدود جسدي بوقاحة، والكل يحاول حمايتي، لم أعد أعرف من معي ومن ضدي، الدائرة تضيق... تضيق، يلمسون كل جزء من أجسادنا بلا استحياء ولا خجل، بدا الموقف وكأنهم أحاطونا وفصلونا عن بعضنا البعض في نفس الوقت، كلما حاول سامح إبعاد الرجال عني ازدادوا قربًا أكثر وأكثر، من يحاول إيذائي أضعاف من يحاول حمايتي، قُطع قميصي، خلع سامح معطفه وألقاه لي، ضربوه، عرض حياته للخطر من أجلي، كان أنقى الرجال بجوار أسوأهم.

وضعتْ كفيها على عينيها، ثم صاحت بقهر وهي تكمل: الأيادي تعبث بملابسي الممزقة، تتلذذ بنهش لحمي، جذبني أحدهم من ذراعي، بينما هناك من يحاول خلع سروالي ليتلاعب بأنوثتي، يحاولون شدي في كل اتجاه بلا رحمة، كأنهم وحوش جائعة التهمت انسانيتها.

لا أدري كيف وصلت إلى سامح -لم أعد أثق سوى به- أو ربما هو من وصل إليّ، استطاع وآخران أن يبعدونني عن ذلك الجحيم، الجميع يدّعون أنهم يعرفونني ويحاولون حمايتي ليأخذوا نصيبهم من الوليمة.

لا أفهم ما يحدث حولنا.

هل هذا عقاب على مشاركة الفتيات في المظاهرات؟!

لا أعرف كيف تكونوا حولي ثانيةً؟ ولمَ كل هذا الإصرار على هتكي؟!

نُزع حجابي، جذبني أحدهم من شعري، كان آخر ساتر أتشبث به، ظهر رجل يحاول إبعادي عنهم، كنت أخشاه، هل حقًا يريد حمايتي؟

لم أعد أعرف من معي ومن ضدي.

رأيت ورد ترتفع وكأنهم يحملونها، تصرخ أن ينقذها أحد، وأحد لم يُبالِ.

البوح الرابع عشر

طين الميدان وعفن الأرض

كانت أمامي، تحاول أن تمسك يدي، لمستُ أطراف أصابعها بكف مرتجف، عيناها مفزوعتان، كدت أصل إليها، ولكنهم جذبوها بعيدًا عني.

تسللت يد تملأها الخطايا إلى أسفل ظهري، تلامسني بصفاقة سارق لا يخشى انكشاف أمره؛ فنظرت خلفي بفزع، ثم نظرت أمامي مرة أخرى، وإذا بها قد اختفت، سقطت في فوهة البركان، لم أتمكن من رؤيتها ثانية، وكأننا في بحر به أمواج عاتية تقذفها في كل مكان، وتفعل بي مثلما تفعل بها.

كان لديهم جميعًا ابتسامة باردة، ساخرة، وجوههم مستمتعة بالاعتداء علينا، يتصرفون كحيوانات جائعة، أحدهم ضمني، اعتقدت أنه يحجب جسدي عن أنيابهم، ولكنه كان ينهش عرضي، تشبثت بأزرار سروالي بما تبقى لي من قوة، أحاول أن أحافظ على آخر معاقل صوني فتفر بقايا كرامتي، سقطت أرضًا، امتدت يد وقحة تجتثني، تقتلع أجزاء من جسدي، وما لي من قرار.

تصاعدت إلى أنفي رائحة طين الميدان وعفن الأرض المختلط بعرق الأجساد والأقدام القذرة، شعرت بالغثيان يتصاعد من أحشائي، وكأن القيء يريد أن يفر من جسدي كما أريد أنا أن أفر من هذا الجحيم، أحاول

سد آذاني حتى لا تطولها تلك الكلمات البذيئة الخارجة من أفواههم النجسة، كنت أسمع أنين سامح وهو يتلقى الضربات بدلاً عني، وأنا عاجزة عن الصراخ.

استطاع بمساعدة آخرين أن يبعد بي، دفعوني إلى باب مبنى مجاور، أغلقوه علينا، لا أعرف كيف صعدنا، ولا من أين جاءتني عباءة سوداء تسترت على فعلتهم، حينها احتضنتني سيدة البيت، انفجرت باكية، كأن السد الذي كان يحبس صدمتي انهار فجأة.

خرجنا بعد فترة ليست بالقليلة من الميدان، رافقني سامح حتى المنزل، طوال الطريق كان يحاول تهدئتي، يضمني تحت ذراعه ليبث في الأمان؛ فأشعر بيده ترتجف كجناح طائر مذعور عاجز عن الطيران.

في اليوم التالي... سمعت خبر الحريق، عرفت بعدها أنها... انتحرت، ضاقت الدنيا من حولي... شعرت بروحي تنفصل عني، وقلبي ينتفض من محبسه.

أغمضتْ عينيها بحسرة، دموعها تسيل بلا صوت، بلا مقاومة، بلا روح، قلتُ بقهر: كيف يمكن للبشر أن يحملوا كل هذا الشر؟! لماذا لا يُحاسبون؟! يمشون أحرارًا في الشوارع وكأن شيئًا لم يكن! مؤكد ما زالوا ينتهكون دون مبالاة؛ فمن أمن العقاب زاد في حقارته، كيف يقولون لنا أن المحسن يُثاب والمسيء يُعاقب؟! كله كذب! كذب!

- سنوات وأنا أشعر بالخيانة، بالغضب، بالذنب... ليتني كنتُ رجلًا! لقد رأيت أجمل وأسوأ ما في البشر في يومٍ واحد، رأيت نورًا صغيرًا خافتًا بين جموع الظلام... ثم اختفى.

- سحقًا! كيف أستطيع أن أبتسم بعد اليوم؟!

- أنا آسفة.... أقولها كل يوم، آسفة ورد... آسفة لأنني لم أستطع إنقاذكِ، آسفة لأنكِ تأذيتِ ولم أكن مكانكِ، آسفة لأن وطني خانكِ، آسفة لكل فتاة تعرّضت للتحرش ولم تجد مجتمعًا ينصفها، بعد أن قمعتهن شعارات السمعة واسم العائلة.

اقتربت منها، ضممتها أحاول أن أمتص قليلًا من مشاعرها؛ فأنا ما زال بإمكاني تحمل الكثير، أما هي فكفى...

كانت دموعي تحاول غسل وجعها، حتى قالت بثبات أدهشني: إياكِ أن تخافي... لا أريدك أن تخشي شيء، اجعلي خوفكِ جسرًا لا قيدًا، يكفي أنني احترقت بالخوف، ونجيت ورد من هذا العالم!

قضيت وقتًا مع نوارة أحاول أن أرتق به بعضًا من شقوق الحكاية، أن أفهم كيف مشت فوق الأشواك دون أن تصرخ، وكيف حملت الغضب الخامدٍ في أعماقها واستمرت الحياة.

لم تتزوج إلى الآن، هجرت جسدها كما يهجر التائه وطنًا يلفظه، زهدت أنوثتها، كما يزهد العطشان ماءً مسمومًا، لا ألومها... أتفهم ما وصلت إليه، ولكن ألا يكفي كل تلك السنوات ليطيب جرحها؟!

تتابع مع طبيب نفسي، لكن عقلها يأبى الانصياع لتعليماته، جرحها يرفض الالتئام كي لا ينسى الألم، تعاقب نفسها على ذنب ليس لها يد فيه، كرّست حياتها للدفاع عن حقوق النساء، تتشبث بمهنتها كأرض جرداء سعدت بظل سحابة؛ فكانت علاجًا طويل الأمد، أو ربما ستارًا تخفي خلفه صرخة لا تنطفئ، تصدح بها كلما آلت لها الفرصة في قضية لمناصرة المرأة.

قبل مغادرتي، ساقني القدر إلى سامح... شريكها في المكتب، رفيق حلمها القديم، نقيٌّ كان كنقاء المطر قبل أن يعكره تراب الأرض، ورغم مسحة الجدية على وجهه، لمحْتُ في عينيه طيف ابتسامةٍ، ما لبث أن تلاشى تحت وطأة الحزن، وهو يتمتم بعد أن عرفته نوارة عليّ: أتتذكر ورد! أخت ورد...

تأملني لحظاتٍ، ثم غضّ بصره مستأذنًا ودخل غرفته بسرعة هاربًا من نظراتي، لا يقوى على خوض معركة بها مواجهة.

همست نوارة أنه لم يتزوج هو الآخر، ورغم علمي برفضها لفكرة الزواج، خرج فضولي من خلف جدار النسيان، وقلتُ بمشاغبة: يحبكِ.

لمعت عيناها بومضة حبٍ تفضح العاشق، وتبللت أهدابها بعبراتٍ اختارت الفراق، وقالت: كانت تربطنا مشاعر بريئة، بنينا قلاعًا وهمية في خيالنا، انهارت مع موجة عاتية قبل أن نسكنها... وانتهى الأمر.

قلت بحماس من وجد حلًا لم يخطر على بال: ابنيا غيرها.

بابتسامة أسى قالت: هل تعتقدين أن يأتي اليوم الذي سوف ينسى فيه مشاهد جسدي وهم ينكلون به؟ بل هل تستطيع مسام جِلدي أن تنسى كل تلك اللمسات الدنيئة؟ كيف ستمحو ذاكرتي كل ذلك؟

لم أجد ما أقوله، بدا لي أن كل كلمات المواساة لا تليق بألمها، همستُ قائلة: هوني عليكِ... الزمن جدير بأن يرمم أكثر الجراح عمقًا، لمَ جلد الذات ولم يكن لكِ يد فيما جرى؟

رفعت عينيها قائلة: وإذا نسيتُ أنا، هل أضمن أنه سينسى؟ كيف أُسلّم روحي لمن ستغمره شفقة كلما لامسني؟ كيف أهرب من نظراته التي تحمل ندمًا وإحساسًا بالتقصير كلما تلاقت أعيننا؟ كيف ستكون مشاعري وأنا بين يديه، أتذكر المرة الأولى التي اقترب مني فيها، وقد كنتُ منتهكة، مهانة؟

قلتُ بحزم أكرر: يحبكِ... يحبكِ.

ثم أردفت: كان مستعدًا أن يضحي بنفسه من أجلك... رجلٌ لم تلوثه الأيام.

قالت وهي تطرق رأسها، تواري قلبها عني: طلبتُ منه أن يتزوج وينساني... أن يعتبر وجودي حُلمًا انتهى كأحلام كثيرة لهذا الوطن، يبني بيتًا لا يعترف بالماضي ولم يشارك أحد في الخيبات.

سألتُها برجاء: لمَ لا تعالجان الجراح معًا؟ ربما يكون هذا هو عوض الله... ترميمٌ روحك لوطنٍ داخلك لم يمت بعد.

- سيملّ الانتظار.

قلتُ أحاول التمسك ببصيص أمل: جربي ولو لمرة؟

رأيت ابتسامة في عينيها تشير لي من خلف الدموع، شعرتُ أنها ربما تفكر في حديثي معها، ترى ذلك الأمل الذي يفتح لها ذراعيه، وفي اللحظة التي كدت أودّع فيها صمتها، خطرت لي ملامحه القديمة، الصديق الرابع؛ فتمتمت: وماذا عن مصطفى؟ أين هو الآن؟

كنت أريد أن أرى ذلك الشخص الذي امتلك قلب ورد، لكني حزنتُ عندما أخبرتني بسفره، ترك حلمه، خلع قلبه، وغادر، ابتعد تمامًا عن كل ما سيذكره بذلك اليوم.

هل عاش حياته من بعدها؟ تجاوز ما حدث؟ أم ما زال مثلهم، يطارده الماضي حتى خارج أرضه، يأبى أن تلتئم جروحه؟

غادرتُ المكتب وأنا أسمع وقع خطوات لا تُسمع... ظلّها يسبقني، أو ربما أنا مَن يسير وراءه دون وعي، أخبر نفسي وأخبرها بهمسات لا يسمعها سواي أن كلَّ شيءٍ تغيّر مع الزمن، حتى الحب... صار يحتاج شجاعةً أكبر من مواجهات الميدان؛ فعندما يطلق النار على الحلم وحدهم العاشقون يقاتلون دون دروع، أو ينتحرون دون وداع.

نزلت الدرج وأنا أفكر كيف أبحث عن شارع آمن من هؤلاء الخونة، أتساءل من ألوم؟! أألوم التعليم المنهار الذي أخرج وحوشًا بدلًا من الرجال؟! أم ألوم الشيوخ الذين لم يُعلموا الناس الصواب من الخطأ رغم أنهم على الفضائيات يتناطحون الفتاوى؟! أم السياسة التي جعلت من الفقر قيدًا على الأعناق؟! الفقر الذي جعل البطون جائعة، طامعة في الفُتات مهما كانت الوسيلة، مكبوتون، محرومون من متع يشاهدونها فقط على الشاشات! أم ألوم الأمهات اللواتي ربين أبناءً لا يعرفون من الرجولة إلا اسمها؟! وماذا عن الآن؟ انفتاح أكبر، شاشات بلا رقابة، مواقع مباحة، فيديوهات لكل من لا خلق له ولا عقل، مأوى لكل تافه لا قدِر له، ماذا عن المدارس؟ الأطفال؟ الكبار؟

بمجرد أن خرجتُ من باب المبنى، وجدته يقف مستندًا على سيارته، ذراعيه متشابكتان وصدره يعلو ويهبط بقلق، توقّفتُ أمامه وقلتُ باندهاش: كيف عرفت أني هنا؟ هل تراقبني صلاح؟!

ارتطمت أنفاسه الحارّة بوجهي، تخرج من بركانٍ خامدٍ توشك نيرانه أن تنفجر، جذبني من ذراعي دون عنف، فتح باب السيارة ودفعني لأجلس، ثم دار ليأخذ مقعده خلف المقود، ضرب عجلة القيادة بكفّه، وقال بصوتٍ هادئٍ أكثر مما يجب: ألم نتفق ألا تذهبي إلى أي مكان دون علمي؟

- لم تكن لتوافق، أنت لا تريد أن أعرف الحقيقة.

رد بغضب: أيّ حقيقة ياسمين؟ الماضي معروف، وكلّ شيءٍ قيل، عن ماذا تبحثين؟

- لماذا ورد؟ لماذا هي الوحيدة التي... رحلت؟

أغمض عينيه لحظة، أستنشق الهواء الذي أخرجه منذ ثوان، ثم أدار مفتاح السيارة وتحرك دون أن ينطق، لكن عينيه كانتا تقولان العكس، ولم أسمع سوى أنفاسه تمنع أفكاري من اللحاق بكلمات نوّارة.

البوح الخامس عشر
حين رقصنا على نغمات القلب

مضت أيام وأنا أرتب في عقلي تلك المشاهد التي انهالت عليّ دفعة واحدة، أحاول أن أبدو طبيعية أمام زوجي، أشعر دائمًا أنه يراقبني، تتتبعني نظراته. لا أرى ورد أثناء وجوده، أراحني ذلك كثيرًا حتى لا يظهر عليّ أي رد فعل يجعله يعاود الإصرار على ذهابي إلى الطبيب، أبغض تلك الأسئلة التي تتدخل في أدق تفاصيل حياتي وأكثرها خصوصية، حتى علاقتي الحميمة بزوجي ومشاعري تجاهه!

مقتنع أن ما أعانيه مجرد هلاوس تجعلني أتوهم أشياء ليس لها وجود، ولكن ورد موجودة، تظهر لي، وتترك دائمًا ما يثبت وجودها، أراها كطيف يخرج من صدع في الفراغ، تمشي فوق أنقاضي وتطرق الأبواب التي أغلقها الجميع عني، يا الله... عقلي أوشك على الجنون.

استأذنت صلاح أن أقضي الليلة في بيت عمي، أشعر أني أُقصّر في حق سيف، يحتاج إلى رعاية واهتمام أكثر مما أفعل، هل سيعذرني عندما يكبر؟ هل سيراني مجنونة هو الآخر؟ أم سيتقبلني بكل ندبي؟

لم تكن سما موجودة حين وصلت إلى منزل عمي، مارست زوجته هوايتها المعتادة في إطعام سيف، حتى اكتفى واستسلم بين ذراعيها لسبات عميق،

لم يستطع فيه أن يأكل أرزًا مع الملائكة، بعدما قامت فريدة بالواجب وأشبعته بما يكفي ويزيد.

وضعته في فراش والده، تفعل ذلك دائمًا بعيون لامعة يملأها الفخر بإنجازها وإنجاز ابنها، ثم جذبتني خارج الغرفة، حيث عمي شاكر يجلس كعادته أمام قنوات الأخبار يتابع ما يحدث في العالم، ألا يكفيه ما حولنا من حوادث ومشاكل ليستورد أخبارًا من الخارج؟! ينتظر دائمًا أن نتأثر بالوضع الخارجي، رغم أننا نعيش الأسوأ ونعاني بلا أي ذنب نقترفه، فقط لأننا نحيا على هذا الكوكب وجب علينا الشقاء، ما الذي لم يؤثر علينا من قبل، حتى وإن لم يكن لنا يد فيه؟! ثورات واحتلالات، حروب ودمار، دماء وانهيارات، أوبئة مصنعة وأمراض يخفون علاجها، وإن وجد لها علاج صعب على الفقراء، أسعار ترتفع ولا تؤمن بالهبوط... وهلمّ جرًّا.

أفقت من شرودي على فريدة تجذبني من ذراعي لأدخل معها غرفتها بعيدًا عن تأملات عمي وأحاديث الأخبار التي لا تنتهي، لم أشعر بها وهي تنادي عليَّ لأنتبه فجأة: ياسمين، ألم تسمعي ما قلت؟!

اعتذرت بخجل: آسفة أمي، ماذا كنتِ تقولين؟

ابتسمت بحنو وجذبتني بين ذراعيها؛ فأسندتُ رأسي بأمان على صدرها وأغمضتُ عينيّ أستمتع بقربها.

- لا يعجبني حالكِ هذه الأيام، صغيرتي.

- اشتكى لكِ صلاح مني، أليس كذلك؟

- يحبكِ ويخاف عليكِ ولا يريد أن يتركِ لأوهامكِ.

- مشتتة أمي، لا أعرف لماذا فجأة بدأ يحدث لي كل ذلك، وكأن عقلي تذكّر ورد بعد أن كانت بين دفاتر النسيان، ظهرت لي من العدم، مصمّمة على أن تبلغني شيئًا لا أفهمه ولا أعرفه.

مررتْ أصابعها الحانية على شعري، خدرٌ سار في رأسي وامتد لكل جسدي، دقائق استمتعت فيها بإحساس لا يكون إلا معها، حتى قطعتُ الصمت قائلة: دائمًا أطمئن عليكِ بمجرد قولكِ أمي وليس زوجة عمي كما تحاولين أن تعتادي منذ فترة.

- ربما لأني أبحث عن الحقيقة التي تغاضى عنها الجميع لسنوات.

قالت بلوم: وهل كوني أمكِ ليست حقيقة يا فتاة؟ ألستُ أنا من ربّاكِ؟ كبرتِ بين يديّ وأمام عينيّ، حتى أصبحتِ أجمل أم.

شدّدتُ من احتضانها كاعتذار ضمني على سوء تعبيري، لم تكن لي يومًا سوى أم حنون، وصدر آمن، وسرّ مطمئن، فلمَ هذا الجحود الذي ظهر عليّ فجأة؟

- لماذا صمّم الجميع على إخفاء ما حدث لورد عني، حتى أنتِ؟!

شعرت بارتجاف يدها، تحرّك رأسي صعودًا وهبوطًا مع صدرها، قالت بتردد: لم نتعمد ذلك، حبيبتي، لم يكن الجميع في حالة تسمح بمثل تلك الأحاديث، الكل حاول تجاوز المحنة، والأهم كانت صحتكِ، قلقُنا عليكِ وخوفُنا من حالتكِ بعد الصدمة جعلنا نستدعي النسيان.

- ولماذا يُصرّ صلاح ألا أسأل عن الماضي؟ الشك يراودني، يأبى أن يتركني.

- فيما تشكّين؟!

- صلاح يسعى لإبعادي عن شيء ما لا يريد وصولي إليه، ولذلك يرفض ما أفعل.

أخذت نفسًا بصعوبة، وأبعدتني عن صدرها، نظرت لوجهي بتأمل، وضعت كفيها على وجهي ليداعبا إبهاميها وجنتَيّ، ولم تقل جديدًا: يحبكِ، يخاف عليكِ من أي شيء يمكنه أن يعكر صفو حياتكِ، هناك أمور لا يمكن أن تقال حبيبتي، ليس لأننا نريد اخفائها؛ بل لأنها ستفتح ندوب أغلقها الزمن وتناستها الروح.

للحظة، تساءلت إن كانت تخفي شيئًا عني هي الأخرى، لماذا ارتجفت يدها؟ ولماذا بدا صوتها مرتعشًا حين نطقت باسم ورد؟

- أريد الحقيقة، فقط الحقيقة، مهما كانت جارحة، الحقيقة وحدها تطفئ نيران العقل.

جذبتني لترتاح رأسي على صدرها مرة أخرى وقالت: العتمة أرحم إذا كان هناك من يحتضنك.

...

أمضيتُ الليل في غرفة سما بعد أن قرر عمي وزوجته أخذ سيف للنوم معهما ليستأنسا بوجوده، رفض صلاح المبيت معنا، ربما شعر أني بحاجة لقضاء وقت كافٍ مع سما بعيدًا عنه.

أخبرتُها كلَّ ما قصته عليّ نوارة، كانت تمسح دموعها التي انسابت دون توقف، وكأن ما أخبرتها به حدث لتوّه ولم يمضِ عليه كل هذه السنوات، وسألت نفسي: لماذا لم تتسارع عبراتي مثلها وأنا أقص ما حدث لأول مرة؟ هل كنتُ ممهّدة لذلك بعد زيارات ورد المستمرة ونقلي معها إلى زمنها؟ كنت أخبر سما بكل ما عرفتُ بصوت ثابت وروح متماسكة، ولكن عندما وصلت إلى النهاية، كانت قد عجزت يداها عن إيقاف دموعها، كان من السهل أن ألومهم على إخفاء الحقيقة، لكنني الآن بعد أن رأيت عيناها تغرقان في دموع قديمة، فهمت أن الصمت لم يكن خيانة؛ بل نجاة.

تذكرتُ ليلة مشابهة، كنت أبكي على كتفها لا أفهم لماذا اختفت ورد، وكأن الزمن دار ليعيدنا إلى النقطة نفسها، بدموع أخرى وأسئلة معلقة، لماذا لا تجلس معنا الآن؟

استسلمتْ روحي المرهقة، وانتفضت مشاعري أنا الأخرى، غرقت بلا مقاومة، لم أشعر بنفسي إلا في اليوم التالي وأنا أفتح عينيّ لأجد أنني غطَطتُ في نومٍ عميق، تحتضنني سما، دائمًا بينهم أشعر أني طفلة صغيرة تجد فيهم صدرًا يبكي معها دون أن يسأل، حضنًا لا يطالبها بالتماسك، ولا يتظاهر بالقوة؛ بل فقط يشاركها الضعف.

استيقظتْ بمجرد شعورها بحركتي، ابتسمتْ وهي تقول: صباح الخير، زوجة أخي المتعبة.

فقلتُ بخجل: ماذا حدث؟ وكأن أصابني الإغماء.

ضحكَت قائلة: كالعادة، عزيزتي، ما الجديد؟! تأتين للنوم معي وتعدينني بقضاء سهرة نسائية مرحة بعيدًا عن صلاح وطفله؛ فتسقطين في بئر الأحلام وتتركينني أتعلّق بطرف الفراش أبحث عن مكان للنوم.

ثم تابعت بمرح: دائمًا تسرقكِ الأحلام مني، وتتركينني أؤنس نفسي بالحائط، لو جمعت وعودك بقضاء السهرات لكتبت كتابًا اسمه خداع الياسمين.

ضحكنا قليلًا، لكن شيئًا ما في داخلي كان يعرف أن الليل القادم لن يكون مريحًا، هناك أبواب ستُفتح، لا مفر منها؛ فالحقيقة نبتت داخلي ولم يعد يمكن اقتلاعها.

جلسنا نتسامر لبعض الوقت، نسرق لحظاتٍ تهدأ فيها قلوبنا من الجري المحموم خلف متاعب الحياة.

وجدتني أبتسم، أراقبها وهي تشاغب كعادتها، تُلطّف حدّة أفكاري بنكتةٍ، أو نظرة، أو تعليق لا يخلو من الدهاء.

وفجأة، صمتت، ثم حركت رأسها نحوي، وابتسامة الدهشة ترتسم على شفتيها: لمَ تنظرين إليّ هكذا؟

- ياسمين، هل أحببتِ من قبل؟

أربكها سؤالي غير المتوقع، وبدت على وجهها طيف ابتسامة خجلى، لكنها سرعان ما حركت عينيها يمينًا ويسارًا متظاهرة بالتفكير لتتهرب من الإجابة.

ابتسمتُ وقلت: أيمكن أن تمرّ فتاة دون أن يتحرك قلبها؟! كنتُ أنتظرك منذ زمن، تأتي لتهمسي بقصة حب تغيّر حياتك.

قالت بهدوء جاد: هناك من لم يُخلقوا للحب يا عزيزتي... ليس الجميع مؤهلًا لهذا الاختراق.

- اختراق؟! الحب ليس اقتحامًا يا سما، إنه مشاعر نبيلة، سلامٌ للروح والقلب.

- لكنها مشاعر لا تحتملها كل القلوب... ليست كل النهايات وردية كما نُحب أن نحلم.

- نحن لا نختار من نُحب، الحب قدر، مرض لا شفاء منه إلا بالرضوخ لقوانينه... وإلا بقي أثره فينا للأبد.

صمتت، تركتها تجمع شتات كلماتها، حتى قالت بعد لحظة: تحرك قلبي مرة... لرجل لم يرني أبدًا، ربما لا يعرف اسمي حتى، كان يحب أخرى، مشاعري نحوه... قتلتها قبل أن تنمو، خفتُ أن تؤذيني؛ فاستسلمت لقدري... ألا أُحب، ولا أُحب.

انتبهنا إلى صدى الأنغام التي تنادي علينا من خارج الغرفة، تبادلنا النظرات بدهشة وابتسامة متسائلة؛ فعادةً منزل عمي لا تتردد فيه أصوات الأغاني، وإذا علا فيه صوت أحدهم لا يكون سوى الإعلامي عمر أديب يتساءل عن الحكاية!

سرعان ما وجدنا الإجابة وآذاننا تلتقط الكلمات من بعيد

"يا بنت يا أم المريلة كحلي"

أسرعت سما وهي تقول: أنا هنا من ينادي؟

تحركت خلفها لا أستطيع أنا الأخرى مقاومة النداء، وجدنا عمي وفريدة يجلسان بضحكات رنانة وسعادة لا يملكان اخفائها، تملأ المنزل بهجة ومودة، أمامهما سيف، يلعب على السجادة بمكعبات زاهية مختلفة الألوان والأحجام، كان جهاز التحكم في يد عمي، يقلب كعادته بين المحطات حتى وقعت بين يديه الأغنية المعروفة، رفع صوت التلفاز على غير عادته؛ فلبينا النداء دون أدنا مقاومة.

جلسنا بجواره نتنافس من منا سيفوز بنصيب من الحب أكثر من الأخرى، لتكون النتيجة النهائية التعادل في الأهداف، بلا أي خسائر.

البوح السادس عشر

اعتراف بخط اليد

"هناك أرواحٌ تمضي لكنها باقية، تمر الأيام وهم معنا في القلب والعقل والذاكرة، أما الموت فهو النسيان، أن يُمحى الاسم وتمر الذكرى دون أثر"

كلماتها في أولى صفحات الدفتر المهترئ، خطها القديم يهمس من عالم آخر، تأملتها وكأنها كُتبت لي، خصيصًا لي، لتصلني بعد غياب، مؤكد كتبتها بعد وفاة أبي... كانت مرتبطة به أكثر مني، كنت صغيرة حينها، لم أُدرك بعد معنى الفقد.

أعدت النظر في الأوراق المطوية خارج الدفتر، صفراء منهكة، الخط باهت، الحبر تآكل بفعل الزمن، كلما أمسكت إحداها تراجعت والتقطت أخرى، وكأنني أُسحبها من صندوق باندورا، لا أعلم ما سيأتيني... فرحًا أم وجعًا؟ خيرًا أم شرًا؟

إحدى الأوراق جذبتني، وجدت فيها من الخصوصية ما يُشبه الهمس، مؤكد من مصطفى، حبيبها الأول والأخير.

استغرقت لحظات أفكر لماذا لم يبقَ معها حتى يسلمها إلى أهلها كما فعل سامح؟ هل كان أضعف من أن يواجه الألم، هرب بجرحه وتركها تنزف وحدها؟ أسئلة كثيرة تحاصرني، والأجوبة... معلّقة بين مصيره ومصيرها.

تناولت الورقة بيد مرتعشة، قلبي يضرب صدري كطبول حرب، لا أعلم لماذا شعرت بنفور مفاجئ، شيء ما جعلني أتردد...

"ورد... أعلم أنني ألقي بنفسي في طريق يُفضي إلى الهلاك، لكنني ما عدت أحتمل كتمان هذا الشعور الذي ينمو بداخلي كطفل يتيم يبحث عن حضن لا يملكه"

ما هذا؟ ألم تكن تحبه؟!

دهشة زلزلت أفكاري وأنا أحاول إعادة ترتيب المشهد من جديد، وسرعان ما أكملت قراءة.

"منذ ذلك اليوم المشؤوم، أغلقتِ كل الطرق التي تتيح لي الاعتذار وطلب فرصة جديدة... فرصة واحدة فقط ورد"

ماذا يقصد باليوم المشئوم؟ ماذا فعل لتنفر منه وتبتعد عنه رغم كل الحب الذي كان؛ بل ومتى حدث ذلك ولآخر يوم كانا معًا بالميدان؟!

"أحبكِ... لا لغاية أقسم لكِ، لست طامعًا في ميراث كما تظنين، وستثبت الأيام لكِ ذلك، وحدكِ منحتِ لكل شيء حولي معنى، لقد تغيرت من أجلكِ، كلما رأيت الرفض في عينيكِ، زاد إصراري لأكون ذلك الآخر الذي ترضين عنه، حاولت أن أهرب منكِ، أن أراكِ مجرد فتاة عادية... لكنك لست كذلك، أنتِ سكنتني كالروح، لا فكاك ولا خلاص إلا بالموت، حضوركِ يربكني وغيابكِ يؤلمني، أنت وتين قلبي، بدونك سيختنق جسدي، فكرة أنكِ قد تكونين لغيري... تقتلني.

ورد، أعدكِ بكل شيء، ولن أطلب منكِ أي شيء، فقط أرجوكِ... لا تكوني لسواي، كُتبتي لي مذ لحظاتك الأولى في الحياة، أنا الأحق، أحق بكِ منه، أنت لابن عمكِ ولن تكوني لسواه، لن أتركِكِ، لو أصبحتِ لغيري فهي النهاية، ربما هو جنون... لكنه جنوني بكِ؛ فأنا إنسان يعشق"

ألقيت الورقة من يدي بفزع، كأنها احترقت بين أصابعي، تراجعت خطوة... ثم أخرى، حتى ابتعدت عن تلك الذكريات الحية التي ما زالت تنبض برائحتها.

صلاح!

زوجي أنا!

أَحب أختي؟ عشقها؟ جُن بها؟

أتراه تزوجني ليعيش على ذكراها؟

كيف لم أشعر؟

أكانت حياتي كلها كذبة؟

أنا الظل، الطيف، البديل...

كيف لم أرها في عينيه؟!

الآن فقط فهمت... نظراته، صمته الطويل حين أذكرها، الحزن في صوته حين يسمي اسمي...

لم يكن يُحبني... كان يحبها فيّ.

الآن فهمت... تطاردني حتى أعلم حقيقته.

نظرت حولي أبحث عنها...

أين ذهبتِ ورد؟ لماذا تختفين كلما اقتربت منكِ؟

اظهري... أخبريني لماذا رفضتِه؟

ما السر الذي يخفيه الجميع عني؟

أشعر بالاختناق... الهواء يقل، الجدران تقترب، ودليل الخيانة أمامي... يخبرني أن كل شيء كان وهمًا... كل ابتسامة، كل كلمة، كل وعد... لقد كنت مجرد بديل.

أمسكت رأسي، الدنيا تدور من حولي، تتداخل الأصوات، صوت ورد، صلاح، أبي، مصطفى، عمي، نوارة وأنا...

أين أنا؟

نهضتُ من على الأرض دون أن أعرف كيف وصلت إليها، الأوراق مبعثرة في كل مكان، جسدي يرتجف، هل كنت نائمة؟ كان كابوسًا بخط اليد!

استجمعت قواي بعد فترة ذهول، التقطت أنفاسي كمن يوشك على الغرق ويصارع من أجل الحياة، لا أعرف إن كنت أتهيأ للمواجهة أم للهزيمة.

لم أخبر صلاح بما قرأت؛ فاتهامي له _وإن كان قلبي يصرخ به_ لم يصل بعد إلى لساني، ولكني بدأت أراه غريبًا عني، يرتدي وجهًا أعرفه ويخفي آخر لا أعرفه، كل كلمة قالها، كل لمسة، وكل وعد، كان يخص امرأةً غيري، تشبهني ومن دمي، كنت طيفًا يمشي إلى جواره... وروحه ليست معي.

لن أدفن نفسي في جهل اختاروه لي، سأسير إلى آخر الحكاية، حتى لو احترق القلب في الطريق، وكانت النتيجة تدمير حياتي.

أمسكت الهاتف القديم، قلّبته كأن بين شقوقه الحقيقة، بحثت في ذكرياته عن مصطفى، أي أثر لصوته، لصوره، لرسائله، الهاتف تم تطهيره من كل ما يخصه، أبحث بين بقايا ذاكرة ماتت...

حتى على الفيسبوك، ليس لورد وجود، مستحيل... كان ذلك الموقع حينها دفتر يوميات كل ثوري، الحساب لم يُغلق وحده، أحدهم أغلقه عن قصد.

صفحة أخرى من دفترها الصغير فتحتها، كانت مطوية على أسرارها، هل مرت على عيون غيرها وغيري؟ عرفت سما ما بها أو اقتص منها صلاح ما لا يشفع له؟ لم أعد أثق في أي شيء حتى المكتوب، أياد عابثة لعبت بالذكرى والذكريات، وكأن طمسها أصبح فرض على كل يد تمر بها، ولكن دائمًا هناك بقايا حقيقة تلوح من بعيد يلتقطها من يبحث عنها.

سطور باهتة، وخواطر منسية، كتبتها ربما في لحظة ضعف، أو صدق، أو حتى انهزام وحزن.

"التيه ليس في الطرقات؛ بل داخلي، في الزوايا المخفية من قلبي، حيث تختبئ الخيبات، حب لم يحبني، وحب لم أحبه، وحب بين هذا وذاك أتعلق بظله، حتى أصبحت نصف ظل ونصف وهم، أشتاق إلى وطن لم أزره ولم يروِني من خيره؛ فأفيض لوطن لم يشفني ولم يروِ ظمئي، مقسومة أنا بين ثلاث، أما الحل، حِب من يحبك ولا تحب من أحب غيرك"

كلما اعتقدت أنني فهمت كل شيء، وجدت نفسي أغوص في بحر من الألغاز يرفض أن يلقي بي على شاطئ آمن لأعي كل التفاصيل، هناك طرف ثالث في الحكاية، يحمل حقيقة حُرقت معها ولابد أن أعرفها.

سرت في الطرقات بلا هوادة، أريد أن أبتعد عن أي مكان سأرى به صلاح، لابد أن أفهم كل شيء قبل المواجهة لعلها تكون النهاية.

أخذتني قدماي إلى مكتب نوارة، ربما لأنها الوحيدة التي شعرت بها تقول الحقيقة، ولكنها حقيقة ما زالت ناقصة.

أتلفت حولي بين الحين والآخر لأتأكد أنه لا أحد يتتبعني، ورد أو صلاح، لم يعد يفرق كثيرًا فكلاهما يطاردني في الخفاء.

دخلت المكتب بتردد، المكان هادئ أكثر من اللازم، ناديت بخفوت: نوارة.

ظهر سامح من إحدى الغرف، ينظر بدهشة منعته من الترحيب بي، ابتلعت ريقي بحرج وقلت: آسفة، جئت دون موعد، لكني كنت بالقرب من هنا، وأردت أن أتحدث قليلًا مع نوارة.

قال بشك محاولًا أن يبدو طبيعيًا: أهلًا بكِ... هي على وصول... تفضلي، سأتصل بها لاستعجالها.

قلت سريعًا: لا داعي... ربما الأفضل أن أتحدث معك أولًا.

قال بتردد: بالطبع تفضلي.

جلست دون تردد وقلت: كنتَ صديقًا لورد ومصطفى، كيف كانت علاقتهما؟

- وهل تتوقعين أن أُجيبك بشيء لا يخصّني، حتى وإن كنتُ أعرفه؟!

- مصطفى آخر من رآها، لماذا لم يبحث عنها في كل شبر بالميدان وخارجه حتى يجدها؟

لم يرد، وكأن اسم مصطفى يجبر الجميع على صمت بلا مبرر.

قلتُ بشك: هل هناك من حذّر عليكما الحديث عنه؟ صلاح مثلًا؟

- من صلاح؟

لم أقتنع بسؤاله؛ فقلت: مؤكد قابلته وتعرفت عليه يومًا ما!

أمسك جبهته وكأنه يعتصرها، أغمض عينيه بشدة، ثم أعاد فتحهما ونظر إليّ بتركيز قائلًا بجُمود: بلى، هل هذه الإجابة ترضيك؟

- إحساسي يُخبرني أن هناك شيئًا يجعلك تتهرب من الحديث معي، لا أعرف لماذا يراودني شعور تجاهك لا أجد له تفسيرًا...

-لمَ تُصرّين على معرفة تفاصيل لا تخصك؟

-لأنها أختي.

دقّق النظر في عينيّ، وقال: لو أن هذا فقط السبب، فلا تبحثي وراء شيء مات وانتهى.

- منذ أن رأيتك المرة السابقة، هروبك، نظراتك، واليوم قرأتُ إحدى صفحات مذكرات ورد، تعترف فيها أنها أحبت من لم يحبها، وأحبّها من لم تُحبه، لم أجد غيرك في طريقها يمكنها أن تُحبه دون أن تستطيع الإفصاح عن ذلك من أجل صديقتها.

أخذ نفسًا عميقًا أخرجه ببطء، وقال: ولماذا تعتقدين أني أعرف ما تُخفيه القلوب؟

- لأن إحساسي يُخبرني أنك هو... ذلك الذي رفض حبّها وأحبّ غيرها.

قال بدفاع غير متناسب مع محاولته التظاهر بالبرود: لم أرفض حبّها، لم تُصرّح به من الأساس.

انتظرت أن يكمل، لم يكن وجهه يدل على حب خُسر؛ بل ذنب لم يغفره لنفسه، حتى قال: لم أتخيّل أن أتحدث في ذلك الأمر يومًا، ربما حان الوقت لذلك... من أجلها و... من أجلكِ.

كان صادقًا في حديثه، أشعر بذلك، حتى قال بهدوء لا يتناسب مع اشتعال أفكاري:

- تشكّلت صداقتنا منذ دخول نوارة وورد الجامعة، تجذبها من يدها كأنها تعرف الطريق جيدًا، وورد وراءها مستسلمة لخطواتها، لفتتني نوارة، وكانت ورد من نصيب مصطفى، كأننا في رواية رومانسية ننتظر نهاية كلاسيكية، ولكن كما يقولون الصب تفضحه عيونه، دائمًا ما كنت أرى في عينيها حديثًا لا تستطيع قوله، عتابًا على شيء ليس بيدي ولا بيدها، كلما حاولت التحدث معي، كنت أتهرب، حتى ظهر للجميع أنني ونوارة نتبادل مشاعر من نوع خاص؛ تجنبتني، ولكن لم يغب عني رغم ارتباطها الظاهر بمصطفى أنه لم يكن أبدًا في أحلامها، وكأنها علاقة فُرضت عليها أن تُكمل بها بلا مشاعر حقيقية.

قلتُ بسخرية: كانت هي القربان دائمًا.

قال برفض: قلوبنا ليست ملكًا لنا، الحب إن لم يكن من الطرفين، فلا يمكنه العيش، الحب كالجنين في رحم القلب، يجب أن يكون له أم وأب، وإلا أصبح دمًا فاسدًا يجب التخلّص منه.

انتبهتُ فجأة إلى نوارة التي تقف بجوار الباب، تغلبها الدموع، بين صدمة وذهول عاجزة عن الحركة.

البوح السابع عشر

من يفوز ذاكرة الورد أم ذاكرة الحجر؟

دخلت نوارة الغرفة، جلست جواري بهدوء مستعر؛ فقلت بارتباك: آسفة لكما... آسفة نوارة.

قالت بأسى: كنتُ أعلم، ولكني تمنيت أن أكون مخطئة.

نظر لها بصدمة، كست عيناه سحابة حمراء فجأة، وقال: أكنتِ تشكّين في حبي لكِ؟

قالت من بين دموعها: لا... لم يحدث أبدًا... أبدًا.

- لماذا لم تُصارحيني بذلك يومًا؟

-حتى لا تعتقد أن رفضي للزواج بسبب إحساس الذنب تجاه ورد.

قطعتُ حوارهما الذي لا أعرف لماذا أنا بينهما فيه الآن، وقلت: أحيانًا الصمت أفيد من المواجهة.

نظر إليّ كلاهما دون أن ينطقا بكلمة، وكأنهما تذكّرا فجأة وجودي، وقالت: عودي إلى حياتك، لِمَ تنبشين في الماضي؟ أنتِ هكذا أفضل، جميعنا حطّمتنا الأيام، شوّهت في عيوننا الأحلام، ابتعدي، ارجعي لطفلك وزوجك، عيشي كما كنتِ.

أشار لها بالتوقف وقال: لا، نوارة، ما تفعله هو الذي كان يجب أن يحدث منذ زمن، منذ أبعدنا الجميع عن كل شيء يتعلق بورد.

ثم نظر إليّ وقال بإصرار: يجب أن تكون الحقيقة واضحة، لم تكن هذه هي النهاية المناسبة، ورد لا تستحقّ ذلك، سأعطيك صفحة مصطفى على الفيسبوك، تواصلي معه... ولكن اعلمي جيدًا أنه أصبح شخص آخر، تعرفي عليه الآن لتدركي بنفسك الفارق، لا يمكن لأحد أن يعيش مخدوعًا إلى الأبد؛ فبعض القصص تظل عالقة في المنتصف حتى تتضح الصورة.

.....

ظل صدى كلمات سامح تتردد في عقلي وأنا أجلس على الأريكة، أنتظر وصول صلاح محاولة التظاهر بأني على ما يرام، فتحت تطبيق فيسبوك، بحثت عن الاسم؛ فظهر لي على الفور، تأملت صورته؛ لم يغيّرها منذ سنوات، نظراته شارده وكأنه يأبى التصوير، ملامحه جادة، ربما لو ابتسم لطغت جاذبيته كرجل مصري يختلط في ملامحه الحزن بابتسامة لا يجيدها إلا المصريون، حتى لو جرحهم الزمن.

تنقلت بين المنشورات، أبحث عن دليل إدانة على نسيانه لها، لكنني لم أجد سوى صور للورد، وأبيات شعر حزينة عن وجع الفراق وعذاب القلب.

اختطفني الوقت وأنا أتنقل من منشور لآخر، ومن صورة لأخرى، يرتجف قلبي مع كلماته، كل حرف فيها يقطر من روحه، شابٌّ محطم، مهزوم... لا يكتب منشورًا إلا كأنه مرثية، حديثه يصرخ بالخيبة، أفكاره مشتتة، أو مخفية يخشى الإفصاح عنها، وجدتُ بين كلماته ثورةً لا تزال مشتعلة في صدره، لكنها بلا نار... فقط دخان كثيف يملأ العقل ولا يرحل.

كل ما ينشره يشبهه... صورٌ باهتة، مقاطع قديمة لمظاهرات، وجوه رفاق رحلوا أو اختفوا، أو حتى هاجروا، إنسان كان يؤمن بشيء؛ فخذله كل شيء.
في أحد المنشورات كتب:
"الثائر الحقيقي لا يموت برصاصة... بل حين يرى من أحبها تسير عكس حلمه، ولا يستطيع أن يصرخ فيها لتعود"
كأنه توقف في الزمن عند تلك الخسارة... لا تطور في العمل، لا إنجازات، لا صورة مع أصدقاء، لا لحظات فرح، لا زوجة وأبناء، فقط انتظار، ربما انتظار أن يعرف الحقيقة... مثلي!

كدتُ أرسل له رسالة أطلب فيها مقابلته، لكنني لم أستطع انتظار الرد، ضغطت على الرقم الموجود في ملفه الشخصي، وقلبي يتسارع كأنها المرة الأولى التي أُجري فيها اتصالًا.
جاءني صوته من بعيد... أجل، من بعيد جدًا، يعبر سنوات من الغياب محملًا بالعمر الضائع، ضرب صوته أعماقي وسرى داخلي كتيار كهربائي اجتاح أوردتي.
خرجت كلماتي بصعوبة: أستاذ مصطفى راضي؟
صمت... صمت كثيرًا هو الآخر وكأن كل من أحدثه يكون السكوت رده... حتى خلت أن الاتصال قد انقطع، نظرت إلى الهاتف في يدي، ثم أعدته إلى أذني وترددت:

- ألو

- من؟

- أنا... ياسمين، شقيقة ورد.

ترددت أنفاسه في أذني، تأتي من داخل كهفٍ عميق، محاولًا التماسك وسط عدم التصديق.

- أخت ورد!

- هل يمكنني مقابلتك؟

لم يجب.

- لن آخذ من وقتك كثيرًا، فقط أحتاج إلى إجابة على أسئلة قد لا يعرفها سواك.

- سأنتظرك غدًا الساعة الحادية عشرة صباحًا، في مقهى "ليالي النيل" بشارع طلعت حرب، سأرسل لكِ الموقع.

وما أن أنهينا المكالمة، أرسل المكان فورًا... أعرفه جيدًا، لكن شيئًا ما بداخلي منعني من إخباره بذلك.

كانت الساعة السابعة مساءً، صلاح تأخر على غير عادته لحسن حظي، لم أكن في حالٍ يسمح لي بمواجهته، وربما خسارته إلى الأبد، عليَّ أن أكبح جماح ظنوني وهواجسي... حتى أصل إلى حقيقة بلا شك ولا تأويل.

...

مرّت الليلة بصعوبة، كنت بين يقظة ونعاس، أنام بعينٍ وأبقي الأخرى مشرعة تنتظر طيفها، أبحث عنها في الغرفة بين الحين والآخر، رغم يقيني أنها لن تظهر لي وصلاح موجود، ومع ذلك قلبي ظل يترقب منها إشارة، لمسة، همسة، أي شيء يطمئنني قبل لقائي بمصطفى.

ما إن غادر زوجي المنزل صباحًا، حتى أسرعت كمن يهرب من نفسه، ارتديت ملابسي، جهّزت سيف وأغراضه، وانطلقت به أولاً إلى منزل عمي.

استقبلتني سما بدهشة؛ فالساعة لم تتجاوز التاسعة بعد، وقفت معقودة الذراعين، عيناها تنغزاني بأسئلة لا تنتهي، تستعد للاعتراض قبل أن تسمع السبب.

- أين ستذهبين في هذا الوقت المبكر؟

- سما، أعدك... هذه ستكون المرة الأخيرة.

- يجب أن أعرف إلى أين أنت ذاهبة، ياسمين.

- لن أغيب، بالله عليك، لا تخبري صلاح.

- ما تفعلينه لا يصح.

- وعدتِني أن تقفي إلى جانبي.

- وما زلت على وعدي، ولكنك تريدين مني أن أراكِ تسيرين على حد السكين وأتركك دون مساعدة ولا أستطيع منعك من النزف.

- سأخبرك بكل شيء إذا نجح ما أسعى إليه، فقط امنحيني القليل من الوقت، ولا تقولي شيئًا لوالدتك.

- ستدمرين حياتك، ربما تندمين بعد علمك ما تبحثين عنه، الحقيقة لا تعيد الأموات، لكنها تقتل الأحياء ببطء.

- لن أسألك عما تخفينه سما، لا أريد أن أضعك في موقف لا تقوين على مواجهته، فقط اتركيني أصل للحقيقة بنفسي.

أغمضت عينها تهرب من مواجهة نظراتي، ثم مدّت يديها بصمت لتأخذ مني سيف، نظرتُ إلى صغيري، كان نائمًا على صدري، لا شيء في هذا العالم يوجعه أو يخيفه وهو بالقرب من قلبي رغم خوفي... كم تمنيتُ أن أُخبئه عن كل ما يمكن أن يُكسر فيه يومًا، مددتُ الطفل إليها بتردد، وقلتُ وأنا أكاد أختنق: لو تأخرت... قولي له أنني ذهبت لأعيد شيئًا ضاع من قلب أمه قبل أن يُولد.

ضمّته إلى صدرها وهمست: إن تأخرتِ فسأضطر لإخبار صلاح.

أومأتُ برأسي، شعرتُ كأنني أقطع شريانًا حيًا بيني وبين عائلتي، لكنني كنت أعرف...إن لم أذهب الآن؛ فلن أذهب أبدًا، ألقيت نظرة أخيرة على سيف ثم أدرتُ ظهري... وخطوتُ نحو الباب الذي لا أعرف إن كنت سأعود منه أم إليه.

غادرت أنتزع نفسي من شباك صياد، وكل ما يشغلني شيء واحد... الوصول، أركض نحو الحقيقة، نحو ذلك الرجل الذي أحب ورد، أتسائل هل لم يمل

قلبها له كحب حقيقي؟ هل ظل قلبها يستعطف حبًا ليس لها حتى آخر دقيقة في حياتها؟ وما كان زوجي بالنسبة لها؟

.....

في طريقي إلى ميدان طلعت حرب، مرّت سيارة الأجرة على ميدان التحرير؛ فاهتزت أحشائي كأن ذاكرة ثقيلة سقطت في جوفي فجأة، هذا المكان، شاهِد لا يكذب، يهمس لي بما لا يُقال، ويوقظ فيّ رعشة تفزع عقلي وتقلق معدتي، هل لو سألته سينطق بالحقيقة أم سيظل صامتنًا بعدما أرهقته الحكايات؟

طلبت من السائق أن يتوقف، دفعت الأجرة، ونزلت بخطى مترددة، ما زال أمامي بعض الوقت على موعد اللقاء، آثرت أن أواجه المكان الذي شهد الحرية وسلبها يومًا.

وقفت كما يقف التائه أمام أطلاله، هل لو عدت بالزمن سأكرر ما فعلته ورد؟ سأثور وأعلن عصياني، أطالب بحرية لا أعرفها ولا أدرك نتائجها، تحاول ذاكرتي أن تقارن بين ما كان وما صار، تستدعي لقطات قديمة، تلك الدائرة الخضراء الكبيرة التي كانت يومًا ساحةً للأحلام باتت الآن تكسوها الأحجار، صامتة، لا تصرخ، لا تغنّي.

استحضرت تلك الصور التي رأيتها مرارًا وأنا أبحث عن ورد، وعن الثورة... الميدان، الخيام، اللافتات، والعَلَم الذي كان يرتفع في المنتصف كأنه النفس الأخير.

كانوا هنا، أولئك الذين أحاول أن أجمع فتات حكاياتهم، يهتفون، يضحكون، يبكون، يؤمنون...

الآن، في قلب الساحة، ترتفع المسلة الفرعونية شامخة، شبح للملك يقف يراقبنا كأننا أبناء عصيان آخر، الجد الأعظم يفرض هيبته على أنقاض الحلم القريب، يحيط بها كباش الكرنك كحراس زمن غابر تحكم علينا بالسكوت الأبدي.

سألت نفسي: هل مُحيَ الميدان القديم، غطّت الأحجار على الحشود، الأنين، والدماء؟ أم أن الماضي البعيد جعل المكان يبدو أقوى؟ كأن الماضي انتصر على الحاضر، وكأننا في دورة لا تنتهي، ولكن... المهم أن الانتصار دائمًا لأبناء الأرض.

غادرت الميدان كما دخلته... لا أجوبة، فقط وجع قديم يرتدي وجهًا جديدًا.

وصلتُ أمام المقهى، ثقلت خطواتي كأنني أقترب من هاوية لا أدري متى صعدتُ إلى حافتها، ولا كم من الوقت ظللت معلقة فوقها، دخلتُ المكان الذي أعرفه، طراز قديم متعمد، كراسي خشبية، ألوان باهتة مقصودة، رائحة البن بجوار القهوة سريعة الذوبان تشبه خليطًا من وجع الماضي وراحة الحاضر.

عرفته، وقف بمجرد رؤيتي، تلمع عيناه بسحابة حزن يمنعها كبرياء الرجولة من غسل بقايا الزمن عن وجنتيه، بلا كلمات أو شارة للجلوس استقبلني، ظل واقفًا كتمثال شمع مشتعل فتيله، أوشك على الانصهار وهو يدقق النظر في ملامحي.

جلستُ دون حديث، لم أجد من الكلمات ما يمكنني التعبير به أمام جموده، جلس كملك معزول يستعيد عرشه القديم، كانت نظراته تبث في قلبي ريبة لم أعرف لها اسما، ورهبة لم أعهدها من قبل، كأنه يقرأ داخلي دون إرادة مني، حاولتُ كسر الصمت رغم اشتعال رأسي بالأسئلة وقلت: أعرف أني أشبهها إلى حد كبير.

نطق أخيرًا قائلًا بشرود: أجل، تشبهينها.

البوح الثامن عشر

ما زلت أريد الهرب من الدخان

كانت نظراته تخترقني بعنف، تسيطر على كل تفاصيلي، لم يكن وقحًا، ولكنه مشتاق! لم آتِ لأشفي اشتياقه وأعطيه ترياقًا بالإكراه كما فعل صلاح عندما نهل مني دون إرادة إكسير الحياة، قلتُ بجمود: جئتُ لتخبرني كل شيء كنت تعرفه عن ورد، ماذا حدث لها آخر يوم؟

وأخيرًا أبعد عينيه عني، أدار رأسه بعدما أفاق من صدمة رؤيتي ولم يعد يقوى على مواجهتي، أخرج علبة تبغ من جيبه بتوتر، أشعل لفافة وكأنه يحرق عجزه عن الرد، أخذ نفسًا كاد يبتلعه ثم زفره بنفور كاره، وعادت نظراته تخترق مسامي، كأنه يستجوبني لا العكس، عيناه تبحثان عن ورد فيّ، وأنا أبحث عنهما في ماضي لا أعرفه، نفث الدخان في وجهي عن قصد؛ ابتعدت بجزعي باستياء؛ فقال ببرود: كانت تكره السجائر.

قلتُ بدهشة: أتفعل ما كانت تكرهه؟!

– بل أحرق كل شيء بداخِلي أحبّته؛ لينتهي ذلك القديم.

قاسيةٌ هي الجملة، موجعةٌ تلك العبرات العاجزة في عينيه.

وضع السيجارة في المطفأة، وأخذ يضغط على طرفها ليعصر أولها بغيظ حتى دهسها وانتهي أمرها، وقال: هكذا أفضل، بما أنكِ تكرهين رائحة التبغ، لا أريد إزعاجك بالطبع، أنا معكِ في كل ما تريدين معرفته.

– إذًا، أخبرني كل شيء وأي شيء.

لمرة أخرى، نظراته تصيب عينَيّ بعناد وتحدٍ، مصمم على معرفة ما أفكر فيه، ولستُ أنا من يريد، وكأنها فرصته حتى لا ينتهي دوره في الحكاية؛ بل سيبدأ لتوه في كتابة مشهد جديد.

وضع النادل فنجان القهوة أمامه بخفة، كان قد طلبه قبل حضوري، لم ينتبه ليطلب لي شيئًا، أو ربما تجاهل، أخذ نفسًا عميقًا، حدّق في سطح القهوة الساكن، ثم قال:

- رأيتها أول مرة في قاعة المحاضرات، كانت تجلس بمفردها في الصف الأخير، بعيدًا عن صخب الطلبة وأحاديثهم، تكتب شيئًا في دفتر صغير، كنت أتأملها من بعيد، أنتظر أن تثبت أنها مثل الجميع، ستخترق إحدى المجموعات الشبابية وتطلق الضحكات، رفعت رأسها فصادفت عيناي... ولم تنزل عيني بعدها.

كانت فتاة مختلفة، بسيطة في أحلامها، معقدة في روحها، خفيفة الظل، لم تكن تهتم كثيرًا بالمظاهرات ولا بالشعارات، لكنها كانت تؤمن بالناس، بحبهم للحرية، وبحقهم في عيش حياة إنسانية، كنت أسبقها بعامين في كلية الحقوق، جذبني خجلها، بريق عينيها، لباقة حديثها، خليط بين العذوبة والقوة، الأنوثة والصلابة، الرقة التي تلامس القلب، والشراسة التي تحميه... تُحب، تخاف وتُقاوم، لا تستسلم لدمعة، ولا تنكسر تحت خيانة، تشكي لكن لا تنهار، تثق لكن لا تجهل، تتألم لكن لا تفقد كرامتها.

انضمت إلى مجموعتنا بحماس، كوّنا أسرة جامعية رسمية ليكون هناك مشروعية لتجمعنا باستمرار، كانت تسمعنا ونحن نتحدث عن الظلم والفقر؛ فتضحك وتقول: أنتم تهتمون بالدنيا، وأنا أهرب منها، المظلوم هو من ظلم نفسه بصمته، والفقير زاد فقره بترك حقه.

أنا من جعلها تهتم، تشارك، تحلم بثورة، وربما... كنت أنا سبب خوفها في النهاية، حين اكتشفت أن الدنيا بها من الوحوش ما لم تكن تتخيل.

أتذكر يومًا حين عاد صديقنا معتقلًا بعد مظاهرة، لم تتكلم، لكنها أمسكت يدي بقوة، نظرت لي وقالت: ما زلت أريد الهرب.

كنت أظن أن الحب سيحمينا... لم يكن درعًا، كان نافذة رأينا منها كل شيء، دون أن نملك القوة لنُغيّر شيئًا، أردت لها أن ترى العالم، لكني ما كنت أعلم أن العالم سيبتلعها، لماذا كانت تطيعني رغم الرفض في عينيها؟ لماذا سارت ورائي دون نقاش وهي المتمردة على الأوامر؟!

عاد يشعل لفافة تبغٍ أخرى؛ ليأخذ منها نفسًا ويفعل بها كما فعل بسابقتها، وكأن متعة دهسها تفوق متعة سحب دخانها، وقال:

- ذهبنا إلى الميدان نحتفل بذكرى ثورة ما زالت تنبض في قلوبنا، نحمل في أعيننا الأمل وفي صدورنا حلم وطن جديد، لم نكن نُدين بالولاء لتيار سياسي ولا نرفع شعارات دينية، كنا نؤمن فقط بأننا نستحق حياة كريمة، في وطن يسمعنا قبل أن يحكمنا، يحتضن أحلامنا بدلًا من أن يدهسها، كنا

نغني للحرية، نرسمها على الجدران ونكتبها على اللافتات، نصدق أن ما ضحى به الآخرون لن يضيع هباءً...!

لكن شيئًا ما تغيّر تلك الليلة... شعرت أن الميدان الذي كان يحتضننا جحد بحبنا فجأة، كأن الأمل الذي علّقناه على لافتاته تهاوى بصمت، لم نعد نغني، كنا نراقب الوجوه، نبحث عن الرفاق، عن الحقيقة، عن طمأنينة سُرقت منا دون إنذار، بدأت الهمسات عن خطفٍ هنا، واعتقال هناك... كل شيء ونقيضه.

كنتُ أحاول الوصول إليها، وكلما اقتربتُ قيدوني وأبعدوني قهرًا، كانت عيناها معلقةً بي وهي تحاول أن تلملم ما بقي من سترٍ في وجه الفوضى، لا أعرف كيف تمكنت من الوصول إليها، خلعت سترتي وحاولت أن أجعلها ترتديها، تمسكت بها وبي، حاولتُ بكل طاقتي أن أُبعدهم عنها، أُحثّها أن تهدأ لتستطيع المقاومة والفرار معي، أُخبرها أنها على ما يرام، ولكني كنتُ أكذب.

رفعوها عاليًا ليُبعدوا بها عن أي يدٍ تحاول إنقاذها، أدركت أن الوصول إليها يشبه اقتحام موجٍ هائج، كلما تقدّمت خطوة، سحبني المدّ بعيدًا، كانت تنظر إليّ، معلّقة في عينيها استغاثة صامتة ذاهلة، وكنت مُكبّلاً بالعجز.

سقطت منهم أرضًا، رميتُ بنفسي فوقها لأحميها، دهسونا بأقدامهم، كانت تتشبث بعُنقي، أنفاسها الحارة تحرق قلبي، تحمّلت، والله تحمّلت، هل كنت حقًا أنقذها... أم أنقذ نفسي من شعوري بالعجز؟

جذبني أحدهم وهو يخنقني بوشاح غليظ، أراها تحاول ستر نفسها، مزّقوا روحها، قبضت على يدي كأنها تمسك الحياة، وتوسّلت إليّ بعينيها ألا أتركها، ولكني تركتها.

كانت الضربات تنزل على ظهري ولا أبال، أحدهم استأثر بي، يجلدني بحزامه وكأنه يؤدي فرضًا، دخل رجلًا بأنبوبة غازٍ مشتعلة، ربما هو صانع الشاي بالميدان، أشعل النار في وجه الجميع دون تفريق، ليبعدهم عنها، وشمُه ما زال على ذراعي، يُذكرني بضعفي وتقصيري في حقها.

رفع كم قميصه ليظهر حرقًا قديم منقوش فوقه بالحبر خريطة لميدان لم يعد كما كان، ليخفي ذكرى لا يريد أن يراها ويلوث دمه بالوشم كما أفسدت الحياة روحه، أكمل قائلًا:

- لا أعرف كيف وصلنا إلى ذلك الطريق، حيث تقف سيارة، سعيتُ لأن أصل إليها وأُدخلها فيها ونهرب سويًا، رأيتها أعلى حقيبة السيارة، ظننت أنه الخلاص، كانوا يصيحون في كل من يحاول الوصول إليها أنهم يُنقذونها ويُخرجونها من الميدان، ولكنهم خطفوها بعيدًا عن أعين الجميع، بعيدًا عني، بعد أن غابت عن الوعي، سلّمت روحها وجسدها، واستسلمت... ولم تعد.

كنتُ أضع يدي على قلبي وأنا أستمع له وأرى فيه قهرَ الرجال، كيف يصبح شابًا كهل عاجز مستنزف، كنتُ موجوعةً من أجله ومن أجلها، لقد انتُهِك مثلها، لم أكن أعرف أن وجعًا لا يمسّ الجسد يمكن أن يُحدث كل هذا الألم، كنتُ أسمع عن رجالٍ يبكون بصمت، لكنني الآن أرى رجلاً تكسّرت فيه الرجولة لا من عجزه؛ بل من صدقه.

وضع يديه على وجهه، يخفي عني ما لا يجب أن أراه، حتى سمعته يقول من خلف راحتيه:

- يا الله... آسف ورد، آسف، لم أستطع حمايتك، آسف لأني وقفتُ عاجزًا لا أقوى على الحركة وأنا أراهم يبتعدون بكِ كفريسةٍ وسط غابةٍ موحشة، كلّ يومٍ يمرّ أتذكّر ما حدث، لم يغب عني يومٌ واحد، أصرخ بها كلّما اختليتُ بنفسي، آســـــف، لم أستطع سترَك، لم أنفّذ وعودي بأن أحافظ عليكِ... آه يا قلبي الذي يأبى أن يهدأ.

انتبه لي بعدما علت شهقاتي، مسح بكفّه آثار دموعٍ حاول إخفاءها ببقايا كبرياء، مرّر يده على شعره، وبالأخرى ربّت على صدره، كأنه يواسي نفسه، ثم نظر إليّ قائلًا:

- لو استطعتُ أن أقنع نفسي أني كنت مجرد شابٍ مندفع، فلن أستطيع أن أسامح نفسي لأني لم أكن رجلًا بما يكفي، هُزمت أمامها، وأمام نفسي، حتى هربت مني... وكأنها تحميني من الانكسار والقهر أمامها، لا تعلم...

أن نظراتها الأخيرة ما زالت معلّقة بذاكرتي، أراها في كل لحظة، ولن تنطفئ نيران رجولتي مهما مرّ العمر.

ربّت على صدره مرة أخيرة، ثم سحب أنفاسه كمن يبتلع الحريق وأخرجه كما ينفس السيجار بغلٍ، وقال هامسًا: ربما لم أكن بطلها كما وعدتها، لكني كنت شاهدها... وشهادتي لن تسقط بالتقادم.

تمالكتُ نفسي وأنا أسأله من بين دموعي: ألا تعرف شيئًا بعد ذلك؟! لماذا لم تبحث عنها، تجري خلف السيارة ربما تجدها قبل أن تنهي حياتها؟!

قال بسرعة مدافعًا عن نفسه: وماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ أدليتُ بشهادتي أمام السلطات، كانت السيارة تقصدها دونًا عن باقي الفتيات، الوحيدة التي اختُطفت من الميدان.

- ماذا تقصد؟

سكت قليلًا، ثم نظر في عينيّ وكأنه يتحدى شيء بداخلي قائلًا: أتعلمين... بعدما قيل لي أنها ماتت، لم أصدق، كنت أشعر أن روحها لم تغب، أسألها دائمًا، لماذا فعلتِ ذلك بنفسك؟ لم أكن لأتخلى عنها مهما حدث، كنت سأجدك.

أغمض عينيه ليحبس داخلهما آخر دموعه، وصمت يستجمع قوى كرامته، مسح على أنفه بتوتر ملحوظ، ثم قال: لا تحاولي معرفة أكثر من ذلك، أنتِ هكذا أفضل، صدقيني، لم يعد يفيد معرفة الماضي... لقد انتهى كل شيء.

- لكنها تطاردني! أراها حولي في كل مكان، تحاول أن توصل لي شيئًا لا أفهمه، تشككني في كل شيء، حتى زوجي، يجب أن أعرف الحقيقة كي أستطيع أن أُكمل حياتي بأمان، أن أعود كما كنت... سعيدة مع طفلي وصلاح.

- صلاح؟!

نطق اسمه كمن يلفظ شوكة علقت بحلقه، والسخرية تشق ملامحه، نظر في عينيّ متسائلًا: هل تحبينه؟

قلت بدهشة: بالطبع، إنه ابن عمي، زوجي ووالد طفلي.

قوس شفتيه بأسف، تعبيرًا عن عدم إعجابه بردّي، ثم قال: لا ألومك إن خدعك، أنتِ ذكية ولكن ورد كانت أذكى، فهمتْ مبكرًا غرضه وطمعه، عودي إلى بيتكِ، لا تنبشي في الماضي.

كان يتحدث كمن يحاول إقناعي بشيء، لكنه بدا كأنه يقنع نفسه، كل محاولة لتشويه صورة صلاح تفضح غيرته منه، لا يعرف أني عرفت ما يلمح له، قلت محاولة الوصول لكل ما خفي عني: حديثك هذا يعني أن هناك شيئًا أجهله، رفضك واستياؤك وأنت تتحدث عنه، يؤكد لي أن ما وجدته يثبت حبه لها كان صحيحًا، لقد كان غريمك... منافسك في حبها وأنت تعرف ذلك.

استفزّته كلماتي، ضرب الطاولة بكفّه؛ فتناثرت قطرات القهوة الباردة بيننا، كدماء قديمة لفظتها الأرض، مُرة وقاتمة لا تُمحى، وقال بانفعال جعل كل من حولنا ينتبه: لم يكن غريمًا ولا منافسًا؛ بل محتال، حاول سرقة قلبها الذي لم يكن لغيري، استغل الفرصة ليقتنص حبًا لم يكن له يومًا، ليكسب المزيد والمزيد من الإرث.

البوح التاسع عشر

الاعتراف لا يشبه النجاة

تسارعت أنفاسي هاربة أمام اتهاماته، قلت مدافعة: ابن عمها، الأحق بها، كبرت أمام عينيه، أنت الدخيل على حبها!

ضم قبضته كمن يمنع نفسه من لكم الهواء أو ربما لكمي، وقال بغيظ: لم يجذبها يومًا، لم يلفت نظرها، ولم يدق قلبها له، كانت متأكدة أنه لا يستحقها، طامعًا في أموال عمه، محتالًا يدعي الحب، مستهترًا بحياته وحياة غيره، ربما كان مدمنًا، يبحث عن أموالٍ ليصرفها على شهواته، جنّ جنونه بعد موت والدك، الميراث... لم يكن له نصيب فيه، كتب والدك كل شيء لكِ ولشقيقتك قبل وفاته بسنوات... فاشتعل الحقد في قلبه، دُمّرت أحلامه بالثروة وقد كان والده موظف بسيط متواضع راض بالقليل، لم يجد طريقة إلا تمثيل دور العاشق، علّه ينال من الحب جانبًا، رفضته، تهجم عليها، حاول فرض سيطرته حتى وإن كان بأبشع الطرق وهو تائه العقل، هربت منه بصعوبة بعدما وضعت ختمها عليه، اسأليه عن سبب تلك العلامة على جبينه، مؤكد تعرفين شكلها.

ارتسم على شفتيه خط ساخر من ابتسامة متهكمة وهو يرى صدمتي وذهولي، فرك أنفه بأنامله المرتعشة وأكمل قائلًا: أليس زوجك؟!

تلعثمت، اختنق صوتي، ثم انفجرت فجأة دون أن أدرِ صارخة به: كاذب!
- لو كنتُ كذلك، لما جئتِ اليوم تبحثين في ماضٍ حرق، قلتِ إنكِ بدأتِ تشكّين فيه، وأنا واثق أنكِ وصلتِ إلى نفس النتيجة لأن قلبكِ هو ما يدلكِ... لكن الاعتراف أصعب ما في الحقيقة دائمًا، وربما تكتشفين أنه من فعل بها كل ذلك ليكسرها ويستولي على كل شيء، أجل... أجل... هو الفاعل ليس أحد غيره، هو من دبر لخطفها من الميدان، أراد قتلها ليهزمها بعدما فشلت كل حيله، وربما هو من أشعل الحريق بالمنزل لينهي عليها.
صرخت به أن يصمت، لم أعد أتحمل حديثه وظنونه التي بثها في عقلي ليتخلص من تأنيب ضميره، يسقط من عليه كل التهم ليخلص نفسه من ذنب التقصير، ويلقي به على آخر كان غريمه يومًا.

وقفتُ أحرّك رأسي رافضة كل ما ذكر، نافرة من كلامه، أنفاسي تختنق، الهواء من حولي يتثاقل، هرولت مبتعدة عنه وعن المكان كله، لا أعرف إلى أين أذهب، ولا كيف، لكن الأهم أن أبتعد... أبتعد بالقدر الذي يسمح لعقلي أن يتنفس.
أشعر أن في صدري صدى صوت ورد يهمس من الماضي: الحقيقة لا تُخيف، الخوف في الكذب...

أجل ورد، ما نؤمن أنه حقيقة قد لا يكون إلا ظلًا لحكاية أُخفيت، أو نصفًا من مشهد مبتور، أحيانًا نعيش العمر نتمسك بشيء ثم نكتشف متأخرين أن حقيقته كانت هناك... خلف ما قيل لنا وما لم نستطع قوله.
ارتجفتُ... يتردد صوتها في عقلي: الحقيقة لا تُخيف...

مضيت في الطرقات بلا هدف، فجأة ظهرت أمامي، ترتدي نفس الوشاح الأبيض الذي وجدته في الحقيبة القديمة، ولكنه ملطخ بالسواد، تنظر إليّ بطرف عينيها، ثم تولي ظهرها وتمضي في الطريق، كأنها تدعوني لأتبعها، لأول مرة اجتمع داخلي الرهبة والفضول؛ ماذا لو تبعتها؟ سرت خلفها بلا إرادة، كأن شيئًا داخلي يعرف الطريق الذي تسير فيه، رغم أن عقلي ظلّ يصرخ ألا أتبعها، تارة تتسارع خطواتها كأنها تطير فوق الأرض ببضع إنشات؛ فأسرع خوفًا من فقدان أثرها، وتارة تتباطأ كأن أُجهدها السير أو... ترددت!
لا أعرف كيف وصلتُ إلى حي منزلنا القديم، تسحبني إلى حيث انتهت بها الحياة وبدأت حكاية أخرى، ذلك البيت الذي لم أجرؤ على ملامسته بنظري طوال السنوات الماضية، رغم قربه من بيت عمي الذي لا يفصله عنه سوى عدة شوارع الصغيرة، تجنبته فرارًا من مواجهة المكان الذي قررت فيه التخلي عن روحها وترك ذلك العالم خلفها.

عبرتْ من البوابة الحديدية دون أن تفتحها، أما أنا فوقفتُ مترددة، هل أتجاوز وأمضي إلى المجهول، أم أعود كما كنت؟ أترك الذكرى والذاكرة في الداخل بين الرماد والحطام وأبتعد بلا رجعة، أم أدخل لأرى الحقيقة التي تحاول أن تدلني إليها؟

دفعتُ الباب، كان يأبى أن يطيعني، لكنه رضخ لإصراري، لم أبالِ بصوت صريره المرتفع الذي لفت نظر كثيرين في الحي، نظرتُ حولي علّني أجد من يشدّ من أزري ويدخل معي، لكن كل الوجوه كانت مندهشة، متسائلة ماذا أفعل وحدي هنا بعد أن هجر الجميع المنزل، وكأنه موسوم بعار من احترق فيه؟

سمعتُ صوتًا ينادي من بعيد:

ــ ورد... ورد...

لم أبحث عن مصدر النداء، دخلتُ بلا تردد، وجدتها واقفة على الدرج، تنتظر أن أصعد خلفها، واثقة من تنفيذي أوامرها؛ ففعلت.

كأنها ما زالت تلك الطفلة التي تمنحني نصف الحلوى، رغم أني كنت لا أستحق، حتى عندما أختبئ خلفها لأتفادى عقاب أمي، كانت أماني، ولكني تخليت عنها وتركتها تحترق وحدها.

كل شيء في المكان يعلوه غبار الزمن، خيوط العنكبوت تنسج شباكها في زواياه، السواد لطّخ الجدران، وتراب كثيف يغمر الرخام والأخشاب،

تتبعتها، لم أرهبها، لم أخف كما توقعت أو يرتجف قلبي رهبة، ربما لأنني اعتدتُ الخوف، أو لأن خوفي الأكبر كان بداخل عقلي، نابعًا من أفكاري.

صعدت الدرج بثبات وفضول يدفعني لتذكر كل تفاصيل المنزل.

سمعت همهمات أسفل السُلم، في تلك الفجوة السوداء التي تسع الخطيئة وتخفيها في جوفها، رأيت ما حدث ذاك اليوم المشؤوم، صلاح يجذب ورد بعيدًا عن العيون، يضع يده على فمها ليصمت صرخاتها إلى الأبد، يضمها إليه بشوق ذئب جائع، تتضارب حركاته بين لهفة وانتقام، حاولتْ التخلص منه، ابعاده عنها بكل الطرق، ضمها أكثر، استغل هيمنته كرجل ليشل دفاعها، يهمس بجنون: أحبك ورد، أعشقك، لن تكوني لغيري.

تحاول أن تستغيث، لا تقوى على التخلص منه، يزداد جنونه كلما زادت مقاومتها ورفضها له، حتى استسلمت، نفدت طاقتها وضعفت حيلتها، شعر بالنصر، سيحقق هدفه ويمتلكها طوال العمر، جسدًا وروح، لم يعِ أنه يستحيل أن يمتلك لها قلبًا ينبض بحب غيره!

أرخى يديه أمام نشوة الانتصار، يحاول جني ثمار شفتيها قبل الأوان، استغلت تشتته واختطفت لوحًا خشبيًا كان مستكينًا بجوارها، هوت به على جبهته؛ فارتسم الألم الصامت على ملامحه، قبل أن يترنح إلى الخلف ويتركها تهرب من مصيدته، دون أن يجرؤ على الصراخ.

لماذا أرى كل ذلك الآن؟ لماذا تصرين على تشويه كل شيء في عينيّ؟ صلاح الذي ظننته يغدق عليّ بحبه وحنانه لسنوات، زوجي الذي لا أشعر بالأمان

سوى بالقرب من دقات قلبه، التي أحفظ إيقاعها كسمفونية عشق تعزف ألحانها من أجلي.
ابتسمت وهي تنظر لي بتشفي، أكملت صعودها الدرج ببرود لا يتناسب مع جذوة النار في قلبي، كأنها على بساط هلامي، يصعد السُلم دون خطوات، تأمرني عينيها أن أكمل خلفها، فكرت في الفرار، العودة إلى حيث كنت، لم أعد أريد معرفة شيء، أريد فقط أن أحتضن طفلي، وأنام على صدر زوجي الذي أعرفه، لا هذا الذي رأيت شيطانه.

دخلتُ خلفها الشقة، أثر الحريق على الأثاث، رماد متناثر هنا وهناك، وصلتُ إلى ممر الغرف، الرماد أكثر وأكثر، سواد الجدران قاتل، غرفتي محترقة بالكامل، بقايا أثاث متفحّم، لا ذكريات واضحة، لا شيء سوى... أنا وهي.
فجأة صدى صوت أمي تردد في البيت كله كما كانت تنادي: ورد، ياسمين.
ابتسمت، تآكلت البسمة عندما أدركت أنه مضى من الزمن ما يؤكد أنها أوهام.
تردد صوتها مرة أخرى بالمكان، وكأنها تؤكد أنها ما زالت تحتفظ بوجودها داخل المنزل: ورد، لا تلعبي بالنار، اتركي الشمعة وإلا أخبرت والدك.
تسمرت مكاني، نظرت حولي، وجدت ورد تقف داخل الغرفة المحترقة، بهيئة لم أعتد رأيتها بها، شعر مشعث وثياب ممزقة، تضمّ ما تبقى منها إلى

جسدها، تحاول أن تخفي عارًا لم يكن لها يد فيه، رفعت رأسها ونظرت إليّ... بعينين مفزوعتين، والشمعة خلفها تكبر، تتزايد نيرانها كوحش هائج، دمية قماش تحت قدميها، محترقة، لا ملامح لها، هل كانت عروستي أم عروستها؟

اقتربت فجأة تحاول النيل مني على شيء لا أفهمه، عدت خطوات للخلف، أردت أن أخبرها أنني لست مسؤولة عن كل ما حدث لها، لم أكن أقصد أن أضرم الحريق ليحترق الجميع، كنت ألعب بالشموع احتفالًا بعيد ميلاد عروستي.

اقتربت أكثر، كأنها تريد قتلي، صوتها كان كهشيم من نار خافتة يُحملني وزر حياة لم أعيشها.

ــ لقد سرقتِ حياتي... وعشتِ بدلاً مني!

ــ لا... لا... أنا أحبكِ، حاولت أن أبحث عن الحقيقة، أردت الحقيقة...

- لو كنت مكانكِ لأنقذتكِ، ولكنكِ أنانية.

ضممتُ جسدي بذراعيّ كمن يحتمي من عاصفة، عاجزة عن تبرير ذنب لم أدرِ أني اقترفته، رأسي يهتز بالرفض، وعيناي تتوسلان الرحمة أن تبتعد، أن تنسحب من عالمي كما جاءت، لكنّها لم تفعل...

دفعتني بعنف، ارتطمَ ضعفي بالأرض، كعَجْز نخلةٍ خاوية، انكمشتُ على نفسي، ضممتُ قدميّ إلى صدري بذعر، أرجوها أن تدعني وشأني، أعيش

حياة لا تشبهها، حياة بلا ماضيها، بلا صراخ ذكرياتها... لكنها كانت مصمّمة، لم تأتِ لتسامح؛ بل لتُذكّر.
فجأة، رأيت لهبًا يتسلل من أطراف الغرفة، وكأن الذكريات بدأت تحترق هي الأخرى، كل ما خُبئ تحت الرماد قرر أن يشتعل دفعة واحدة ليحرقني مثل الجميع هنا.
النيران تحاصرها، لكنها لم تهرب، نظرت إليّ بشراسة... صرخت قائلة: لن تخرجي من هنا إلا وأنا معكِ.
تنظر إليّ بحقد، تنتظر أن تلتهمني النيران لأعيش معها... أو أموت كما ماتت.

لا أعرف كيف رأيتُ كل ما حدث فجأة... حينها أغمضتُ عينيّ على صراخها والنار تلتهم كل شيء، لم أعد أنا... لم أعد ياسمين، ولا هي ورد، فقط المشاهد تتسلل إليّ عبر النيران، كشاشة تلفاز يحترق.
رأيت نفسي أجري، أهرب من الغرفة قبل أن تتزايد النيران التي أشعلتها وأنا ألعب بولاعة السجائر، تلك التي سرقتها من ابن عمي لأخبر الجميع أنه يدخن، كنت فقط أحتفل بعيد ميلاد دميتي، ولكن اشتعلت النيران في الوسادة، خرجت مسرعة من الغرفة، خشيت العقاب، غادرت المنزل، وقفت بالخارج أنتظر توبيخ أمي وعقاب أبي، ولكن جاءت الصرخات تستغيث، احترق الجميع بالداخل، ونجيت أنا، نجيت وحدي وتركتهم؛ بل

تركوني لأنتظر عقابي على فعلتي، الجزاء من جنس العمل، وها أنا آخذ عقابي على فعلتي الآن.

النار تقترب منّي، تملأ المكان، تزحف في كل ركن من الغرفة، ورد... هناك، يوم ذكرى الثورة، تجلس على الأرض مثلي، في الزاوية المقابلة، تضمّ قدميها إلى صدرها كجنين يخشى الولادة قبل موعده، تبكي... وأنا أبكي معها، أرتجف... وهي ترتجف، لن أتركها هذه المرة نائمة وأهرب، ألسنة اللهب تتزايد، الهواء يقل من حولي، وصلاح... يقف عند الباب، يتراجع خطوة يخشى النيران، يتلفت حوله يبحث عن مغيث، ثم يقترب منها ببطء، يجذبها بعنف، شيئًا فيه كان أقوى من اللهب، وأقسى من الحريق، لا يستطيع انتظار النار لتبلغها.

تنظر إليه بهلع، توسلت له بعينيها أن يرحمها، لكنها لم تعد تقوى على الصراخ أو المقاومة، فقد أنهكتها كل المحاولات السابقة.

استسلمت ليديه، كما يُسلِّم الجسد روحه حين يوقن أن لا مهرب، رفعها بين ذراعيه، يودّ أن ينهي كل شيء سريعًا؛ ليطمئن... أن السر سيُحرَق معها.

بقيت أنظر إليها وهي تُحمل كجسد بلا روح، أراد أن يُنهي عليها بيديه، سيلقي بها في النار سريعًا ويهرب ليأتي دوري ويتخلص مني كما فعل بها.

رأيته يخرج بها من الغرفة، لا؛ بل يعود ويرمي بها في النار.

لا أدري...

تتداخل الصور، تتشوش الحقيقة، وأنا... أختنق، هناك حريق بداخلي، حريق يشعله عقلي.

النار تقترب منّي، تملأ المكان، تزحف في كل أركان المنزل، ورد احترقت هنا كما احترق الجميع من قبلها، بعد أن توارت داخل المنزل خجلًا من فضيحة ستلتصق بها، أشعلت النار بنفسها يوم انتهكتها الأيادي لتلحق بهم، واليوم سأحترق مثلهم، إنها النهاية العادلة، أن يموت الجميع بنفس الطريقة.

تختلط الصور، كيف أنا هنا وهناك، كيف ماتت معهم وعادت لتحرق نفسها، النار تشتعل أمامي وتنطفئ فجأة، أغمضت عينيّ، أقاوم شيء داخلي يجذب رأسي إلى أسفل؛ فنجحت أهدابي في تخليص جفنيّ.

مرت لحظات وأنا معلقة بين السماء والأرض، نظرت حولي بصعوبة، لا يوجد نار، السماء أمامي تؤكد أنني خارج المنزل، يحملني صلاح على ذراعيه، الشمس تستعد للمغيب، قلت له بوهن: لقد رأيت كل شيء.

وأسدلت جفنيّ مستسلمة لصوتٍ داخلي لم أعد أعرف إن كان يقول: عودي إلى نفسك... أم ودّعيها.

البوح الأخير

دائمًا هناك دافع للعشق

أفاقت على أشعة الشمس التي تسللت إلى عينيها دون إذن، توقظها من حُلمٍ طويل، بعد أيام من العزلة خلف الستائر المغلقة، تحركت بتثاقل حتى النافذة، وقفت شاردة، تغوص في صمت الطبيعة، تتهيأ لمواجهة العالم من جديد، كتلك العصافير التي تلهو فوق الأشجار تحثها على مشاركتها الحياة، نادت عليها الممرضة بابتسامة ملائكية لتكمل فطارها، فبدا اسمها غريبًا، كأنها تسمعه لأول مرة.

فُتح الباب بعد عدة طرقات لم تنتبه لها، كانت شاردة، تغوص في صمت الطبيعة، حتى سمعت من خلفها صوتًا مألوفًا اعتاد عليه يقول: صباح الخير.

التفتت إليه بسكينة، وقالت: صباح الخير، دكتور بلال.

جلس على الكرسي الموجود بالغرفة، وبيده ملف يسجل فيه بعض الملحوظات، وقال بلطف: كيف حالك اليوم؟ أراكِ أكثر إشراقًا.

أخذت نفسًا عميقًا أخرجته ببطء، وقالت بهدوء: أشعر أني فتاة أخرى، بين هذه وتلك، لم أعد القديمة التي عانت صراع الوحدة والفقد، ولا تلك التي اختنقت داخل الماضي، لكني أيضًا لست تلك التي عاشت الصدمة وبحثت عن حقيقة تخفيها عن نفسها.

سألها وهو يدوّن ملاحظاته: ومن فيهما الأقرب إلى مشاعركِ وإحساسكِ؟
صمتت لحظات، ثم قالت: أنا خليط بين ماضي ورد وحاضر ياسمين... وربما، أنا زهرة نبتت بين رماد الحريق ونور الصباح.
ابتسم الطبيب وهو يرى مريضته تتعافى بعد سنوات طويلة من العلاج النفسي لاضطراب الهوية التفارقي، وقال: إذًا، نكمل آخر جلساتنا بالمشفى، قبل أن أعطي الإذن بخروجك اليوم، ولنبدأ الآن من حيث توقفت ذاكرة ورد.
أغمضت عينيها بسكينة، في داخلها فتاة أخرى... لا تعرفها، لكنها تشعر بوجودها، تبكي في الظل، تصرخ كلما أُغلقت الأبواب، وترتجف كلما اقترب منها أحد، حين تغفو ترى بيتًا يحترق... وتسمع اسمًا يُهمس في الحلم: ورد...
تمسك رأسها بين كفيها وتسألهم: من أنا؟
حين يناديها الجميع ورد، ولكنها مصرة على أنها ياسمين، كلما حاولت أن تصدقهم، كانت المرآة تفضح التناقض، نعم هي تشبهها إلى حد كبير ولكنها ليست هي، هناك ماضٍ يطفو كلما غفت، أو مكثت بمفردها مع أفكارها؛ فيحاولون إغراقه بالحبوب المهدئة والكلمات المطمئنة، حتى اقتنع الجميع أنها يجب أن تظل ياسمين، نست ورد، وتناساها كل من حولها، طالما استكانت الحياة ومرت الأيام دون أعاصير، حتى عادت الأخيرة من أعماق

النسيان، ترفض أن تكون مجرد ذكرى منسية، طاردتها حتى أثبتت وجودها وأحقيتها في العيش.

- كان كابوسًا... أقنعت نفسي بذلك، لا بد أنني سأستيقظ الآن، وأنا لست في الميدان؛ بل في جحيمٍ تنكّر في هيئة حلم، الوجوه التي كنت أراها لم تكن لرفاقي الأوفياء... لا، لم يكونوا مصريين، كانوا غُرباء، أنجاسًا اندسّوا بين الهتافات الطاهرة ليشوّهوا براءة التحرير.

لكنني لم أستيقظ.

ظلّ الكابوس ينهش يقيني بالوطن، حتى وجدتني مُلقاة كخرقة بالية على رصيفٍ بارد، لا شيء حولي سوى الصمت، ورائحة الخيانة، لا أعرف كيف نجوت، أو إن كنت فعلًا نجوت، ولا كيف انتهى بي الطريق إلى هذه الهاوية، أو متى فقدت الطريق أصلاً... كل ما أعرفه أن الكابوس لم يكن حلمًا؛ بل حياة، وأنا ما زلت أعيشها.

كنت أتشبث بمعطف مصطفى... لكنه لم يكن معي، ترك يدي حين أمسكتها بكل قوتي... تركني في العراء، الجميع فعلوا الشيء نفسه، كلٌّ بطريقته.

أنظر حولي بفزع، وكأن كل من في الشارع يستبيح جسدي بنظراته.

ركضت بلا وعي، لا أفكر سوى في وجهة واحدة، منزلنا القديم... هناك أبي، أمي، وياسمين... سأستيقظ وأجدني بينهم، سيزول كل شيء.

وصلت إلى باب البيت، لم يكن مخيفًا... كان ملاذًا، بينما كل شيء في الخارج يزأر بالرعب، الوجوه كريهة، مشوهة، كأنها خرجت من كوابيسي، لم يعد منزل، كان شاهد قبر بلا أسماء.

دفعت الباب المتهالك... وكأن أيادي العابثين عافت أن تقتنص منه ضلعًا، لئلا تُصاب بلعنته.

رائحة الحريق ما زالت معلقة في الأركان...

بقايا دماء غلفها الغبار تؤكد لي أن نهايتي يجب أن تكون هنا... مثلهم، تلتهمني النيران كما فعلت بهم، أن أذوب معهم في القبر، لا أن أظل حطبًا يؤجج به نيران الحياة.

كنت أضعف من أن أُكمل الحياة، وأضعف من أن أختار الموت، رأيتهم يصرخون، يعجزون عن النجاة، وكنت أنا... عاجزة عن إنقاذهم.

أشعلت النار.

لكنها أبت أن تحرقني.

جلست بجوار لعبتي المحترقة، أرقبها تنتظرني... ولكن النار لم تفعل.

كانت تتلذذ بقهري، بإذلالي، كما فعلوا بي في الميدان.

تزايدت النيران... لكنها ابتعدت عني.

وأنا... ظللت مكاني، جبانة، لا أجرؤ على رمي نفسي داخلها.

حتى ظهر من بين الدخان...

يناديني بصوت ممزق: ورد!

لم أُجبه.

أتراه جاء لينقذني؟ أم ليكمل ما بدأه الآخرون؟

جذبني من كتفي... رفعني بعيدًا عن النيران...

حملني، وأنا أقاوم، أصرخ، أرفض.

لماذا يُصرّ أن أعيش مقتولة... ولا أموت حية؟

ضمني إلى صدره، صاح بقهر: لماذا تفعلين ذلك؟

وقُطع اتصالي بالعالم...

انتهى كل شيء...

وأنا على صدره.

هزّ الطبيب رأسه بتروٍ وقال بنبرة هادئة:

- عقلك أنقذكِ بطريقته، إنها واحدة من أعاجيب النفس البشرية... عندما يعجز الواقع عن الاحتمال، يُسدل العقل ستارًا عليه ويصنع بديلاً آمنًا، خلق هوية جديدة، بشخصية أقل ألمًا، واسم لا يحمل رماد الفقد ولا أوجاع الميدان، جعل من ياسمين _أختك التي رحلت مبكرًا_ درعًا يحميك من الانهيار، اختلق عقلك ذكريات لكِ، ولكن كلها كانت ذكريات الطفلة ياسمين، وأهم الذكريات ذكرياتكِ معها، اختفت ورد... وعاشت ياسمين، بلا ذنب، بلا نيران، منذ استيقظتِ في منزل عمك بعد أن أنقذك صلاح من الانتحار يوم لجأتِ للمنزل هربًا من صدمة الميدان، بدأ ذلك

السيناريو البديل، ولأجل تجنيبكِ صدمةً عصبية جديدة، سايركِ الجميع... وصدقوا ما صدقتِ، لتعيشي بينهم باسم ياسمين وروح ورد وماضي ليس لكِ.

ثم تابع وهو يتأمل ملامحها المتزنة لأول مرة منذ أعوام:

- لكنكِ اليوم لا تهربين، تتحدثين عن ورد بوضوح... بل كجزء منكِ، بعدما عدتِ إلى نفس المكان الذي بدأتِ فيه حياة ياسمين وتركتِ ورد، وهو نفسه المكان الذي تحملين ذنب اشعاله عن دون قصد بعدما ماتت عائلتك به، للمرة الثانية تلجئين له هربًا من الواقع ومحاولة للخلاص من الصدمة، ولكن هذه المرة كانت العودة.

ثم ابتسم برفق وأردف: وهذا، يا ورد... أول طريق الشفاء.

ثم قال بلطف وهو يغلق دفتره: بقي شيء واحد، لم تكتبيه بعد في ملفات البوح التي بدأناها منذ شهور...

- صلاح!

هزّ رأسه قائلًا: أجل صلاح الذي تم زواجك به بموافقة ياسمين وأوراق تخص ورد، ونجحت الأسرة في ترتيب أمرها مع المأذون، كيف ترين ذلك الآن، بعدما عادت ورد إلى الحياة، وعرفت أنها تزوجت، وأصبحت أمًا؟ ورد التي رفضت صلاح المستهتر رغم حبه الشديد لها، تزوجته في لحظة اضطراب تواطأت فيها العائلة مع مأذون الحي الذي يعرف القصة كاملة، هل سامحتهم على ذلك؟

صمتت طويلاً، ثم قالت: منذ أخرجني من بين النيران للمرة الثانية، أيقنت أنه ملاذي الوحيد، كان كل مرة هو خلاصي من الجحيم، عندما قابلتُ مصطفى بدون وعي كنت أقارنه بصلاح... ابن عمي الذي ضحى بحياته من أجلي، عاش صراعاتي بكل جنونها وهلاوسها وتقلباتها ولم يتخلَ عني، نجح في حياته من أجلي، حافظ على أموال أبي، لم أشعر يوم بطمعه أو استغلاله لي، حرص على علاجي بكل الطرق، وعلى إصلاح نفسه، ليكون أبًا مثاليًا، حتى وهو يعلم أنه مهدد بخسارتي بمجرد أن أستعيد ذاكرتي، كان داخلي يقين أنه سيُخرجني من بين النيران كما فعل في المرة الأولى، دائمًا يعرف خطواتي وتهور أفكاري.

صلاح واجه... حارب، خسر، لكنه لم يتراجع، ظل يحاربني لأبقى، ولم يهتمم بخسارة أي شيء، المهم عنده أن يحميني حتى من نفسي، أما مصطفى، فلم يفعل شيئًا، استسلم لفكرة نسياني، رأى أن السلامة في الهروب، لا في المواجهة، تحول من ثائر يهتف للكرامة إلى رجل منهزم يهمس بالخذلان، خسر كل أحلامه... لا يقول شيئًا سوى "لم أعد أستطيع"، كأنه يُبرّر لظله كيف غادر الضوء، رغم أنه كان أول من أخبرني أنني أشبه الوطن حين أبتسم، تجاهلني كما تجاهل الثورة ذاتها، أحبني حين كنتُ قوية، حين كانت الهتافات تملأ صدري، والنور يملأ وجهي، كان يردد دائمًا أنني أُشبه الميدان في لحظة الزخم... لكنّه خاف منّي عندما انطفأت، علّق خيباته على خسائر الثورة، وظنّ أنني انتهيت حين سقطتُ؛ فابتعد.

صلاح، رآني في أسوأ أيامي ولم يغمض عينيه، لم يُحبّني فقط حين كنتُ أنتمي إلى الحلم؛ بل ظلّ يحبّني حين صرتُ ظلًّا يتعثّر في نفسه، روحًا تائهة ليس لها ماضٍ ولا ذكريات، لم يُغنّ لي الشعر، لم يعدني بالنهايات السعيدة والحياة المثالية، لكنه اختار البقاء، واكتفى أن روحي ما زالت هنا في عالمه.

لم يكن صلاح فارسًا من أسطورة رسمتها يومًا للشباب الثائر الطامح في تغيير أفلاطوني كسامح؛ بل رجلًا حقيقيًا، يخطئ ويصيب، اختار البقاء... وحين اخترتُ الرحيل عن ذاتي، ظل ينتظرني على العتبة، لم أعد أهرب من النار، لأنني أخيرًا عرفت من سيحترق معي ليطفئها...

تمت

محتويات الرواية

إهداء..... 4
البوح الأول..... 5
وكنت نسيًا منسيًا..... 5
البوح الثاني..... 11
بيني وبينها دمية..... 11
البوح الثالث..... 17
الحقيقة لا تحترق..... 17
البوح الرابع..... 23
حين عبرت بين ظلين..... 23
البوح الخامس..... 28
مطر أسود وحقيبة..... 28
البوح السادس..... 34
شجرة السيدة العذراء..... 34
البوح السابع..... 41
قربان الورد..... 41
البوح الثامن..... 47
ابقَ ولو كنت صمتي..... 47
البوح التاسع..... 53
مَن أكل البيتزا؟!..... 53
البوح العاشر..... 59
هل تؤمن بالأرواح؟..... 59
البوح الحادي عشر..... 65
حين يخون الأمان..... 65
البوح الثاني عشر..... 71

صدى صوت وصورة..... 71
البوح الثالث عشر..... 77
موسيقى بالزيت الحار..... 77
البوح الرابع عشر..... 83
طين الميدان وعفن الأرض..... 83
البوح الخامس عشر..... 91
حين رقصنا على نغمات القلب..... 91
البوح السادس عشر..... 99
اعتراف بخط اليد..... 99
البوح السابع عشر..... 108
من يفوز ذاكرة الورد أم ذاكرة الحجر؟..... 108
البوح الثامن عشر..... 117
ما زلت أريد الهرب من الدخان..... 117
البوح التاسع عشر..... 126
الاعتراف لا يشبه النجاة..... 126
البوح الأخير..... 136
دائمًا هناك دافع للعشق..... 136
محتويات الرواية..... 144

dewanalarabegypt@gmail.com

01030502390

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.